وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور الجلفة

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في مقياس : البلاغة العربية

موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

تخصص: أدب قديم ونقده

إعداد الدكتور : موساوي فرحات

السنة الجامعية:

2022 - 2023 م

المحاضرة رقم: 01 / العوامل الداخلية والخارجية المساهمة في نشأة البلاغة العربية

انقسم الباحثون ـ وهم يؤرخون لعلم البلاغة في مسارها الطويل ـ إلى مجموعات عمدت كل مجموعة إلى تحقيب سيرورتها التاريخية عبر محطات زمنية ، فهناك من لاحق تاريخ البلاغة عبر العصور كما فعل بسيوني عبدالفتاح فيود في مقدمة كتابه "البديع" ومحمد سلطاني في كتابه "معالم في تاريخ البلاغة العربية" ، وهناك من تدرج بتاريخها عبر القرون كما فعل عبدالعزيز عتيق في كتابه "في تاريخ البلاغة العربية" وبدوي طبانة في كتابه "البيان العربي" ، وهناك من عمد إلى العلوم يسائل مصنفات أصحابها عن قسط مساهمتهم في مباحث البلاغة كما فعل مصطفى المراغي في كتابه "تاريخ علوم البلاغة" ، وهناك من رأى تقسيمها إلى مراحل كمراحل حياة الكائن الحي ولادة ونشأة ، ثم اكتمالا وازدهارا، ثم نضجا واستقرارا ، ثم جمودا وانحدارا، وهو التقسيم الذي أخذ به شوقي ضيف في كتابه "البلاغة تطور وتاريخ" وعلي عشري زايد في كتابه "البلاغة العربية" ومازن المبارك في كتابه "الموجز في تاريخ البلاغة" ، وعلى هذا الأخير اعتمدنا في هذه المحاضرة ، غير أن الجميع يجمع على أن البلاغة بدأت بإرهاصات لا تعدو الملاحظة المستندة إلى الذوق ، لتتوزع في تصانيف الإعجازيين واللغويين كمباحث مفرقة لا ينتظمها ناظم بدءا من القرن الثاني ، إلى أن استقلت علما له أصوله وقواعده في تصانيف السّكاكي ومن تلاه.

وحُسنُ البيان وتخير اللفظ قديم عند العرب قدمَ الأدب بشعره ونثره ، ولعل أقدم ما وصل إلينا كاملًا من تراث الجاهلية لا يتعدى القرنين قبل مجيء الإسلام حسب الجاحظ ؛ فقد عرَف هذا العصرُ شعراءَ كثيرين وخطباء وبُلغاء تميَّزوا بحسن البيان ، وبقدرتهم على تذوق

الكلام العربي ، والاهتداءِ إلى مواطن الحُسن والقبح فيه ، وبلغوا مكانة رفيعة في البلاغة والبيان ، وهذا ما تدل عليه مجموع الملاحظات النقدية والأحكام الفِطرية غير المعلَّلة التي صدَرت عن كثير من شعراء الجاهلية أمثال النابغة الذبياني.

إن البلاغة في هذه الفترة كانت أمرًا فُطر عليه العرب ، وهَدَتْهم إليه سليقتُهم ، وتعودت عليه ألسنتهم وألفته آذانهم ، لذا لا يستطيع المتتبِّع لكلام العرب أن يجد فيه ما يبيِّن عناصر البلاغة وشروطَها وقواعدها، كما حصل في القرون اللاحقة.

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على تطور البلاغة العربية وازدهارِها القرآنُ الكريم ؛ لاستحواذ الوجه البلاغي على بقية وجوه الإعجاز فيه فـ«القرآن كان علم البلاغة عند العرب ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.»[1] ، بل يذهب الرافعي إلى أن جميع ما يستشهد به في مباحث البلاغة احتواها القرآن الكريم بأجمل التمثيل وأبدع الإظهار ، وأن كل مبحث لاتمثيل له في القرآن ؛ هو من باب الصنعة والتكلف الذي يذهب فيه من تأخر من علماء البلاغة كل مذهب ، ومع هذا العنت لايأتون بنوع عليه مسحة جمال البلاغة الحقة أغفله القرآن الكريم ، ذلك أن هذا الكتاب العظيم نص محوري في الثقافة العربية الإسلامية دارت في فلكه شتى المعارف والعلوم ، فالكل منه مستمد ؛ محاكيا وناسجا ومستشهدا ، فالنحوي يعضد به قواعده ، واللغوي يفصّح به مفرداته ، والبلاغي يوَشي به أساليبه ، والفقيه يستنبط منه أحكامه ، والأصولي يحمل عليه فروعه ، فما من عالم يروم التبحر في علم من العلوم إلا والقرآن الكريم المحور الذي يتحرك حوله وبوحي منه.

---

[1] - الرافعي ، مصطفى صادق– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية– دار الكتاب العربي ، بيروت – ط : 5 / 1999– ص:177

ومع ما طرأ على البلاغة من تطورٍ إبان صدر الإسلام ، فإننا لا نجد اختلافًا بيّنا مقارَنة مع ما كانت عليه في العصر الجاهلي ؛ بل ظل العرب يَجْرُونَ في أساليبهم على الطبع والسليقة، ويُوفُونَ الكلام حقَّه بحسب ما يقتضيه المقام.

وكما كانت البلاغة شديدةَ الصلة بموضوع إعجاز القرآن، فتناولتها كتبُ الإعجاز خاصة، والكتبُ القرآنية عامة، كذلك كانت متصلةً باللغة والأدب والنقد، فقلَّ أن يخلوَ من الإشارة إلى موضوعاتها كتابٌ من كتب اللغة والأدب والنقد.

وحسْبُنا أن نُلقي نظرة في كتاب سيبويه (180هـ)، ليظهر لنا سبقه في هذا المضمار بمؤلفه "الكتاب" الذي وإنْ كان كتابا نحويا ، إلا أنه لايخلو من بعض الإشارات والظواهر، التي تعد من صميم البحث البلاغي ، فمن ذلك قوله في الحذف: «اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ، ويحذفون ويعوضون ، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا.»[2] وتتبع هذا في "الكتاب" يطول ، وعن سيبويه أخذ من جاء بعده من نحاة وبلاغيين ونقاد ، ومن أصوله بنوا نظرياتهم ، غير أن سيبويه والنحاة لم يسموا هذه البحوث بمصطلحاتها المتعارف عليها ، وإنما هي مجرد قواعد تسير عليها العرب في كلامها وتهتدي بها في إنشائها ، إذن فبعض الأفكار النحوية المحضة طورها البلاغيون وصوروها خير تصوير.

وعاصر سيبويه عالمان لهما في تأسيس علم المجاز جهود ماثلة للعِيان وهما أبو زكريا يحي المعروف بالفراء(207هـ) في كتابه "معاني القرآن" ، وأبوعبيدة معمر بن المثنى(209هـ) في

---

[2] – سيبويه ، عمرو بن عثمان – الكتاب (تح : عبدالسلام هارون) – دار الجيل ، بيروت – ط : 01 / دت – ج : 1 – ص : 24

كتابه "مجاز القرآن" ، وقد كان لهذين الكتابين عظيمُ الفضل وأبين الأثر في تمهيد أمر دخول القرآن إلى الدراسات اللغوية البلاغية والنقدية الأدبية ، فالفراء أودع كتابه مئات الصور المجازية دون أن يسميه باسمه الصريح فمعرفته به ممارسة لا مصطلحا ، أما أبوعبيدة فهو بلا منازع من تعزى إليه إذاعة مصطلح (المجاز) وشهرته وإن لم يرِد عنده بالمعنى الدقيق للمصطلح كما عُرف فيما بعد، غير أن كثرة استشهاداته للدلالة على وقوعه في كلام العرب وفي نصوص الذكر الحكيم كان لها أبلغ الأثر في لفت الأنظار إلى هذه الظاهرة والتسليم بوجودها ورسوخ مفهومها في الأذهان.

وكانت النقلة الحقيقية مع مؤسس البلاغة العربية بلا منازع*[3] أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ) بمصنفاته ؛ خاصة كتابيْه "البيان والتبيين" و"الحيوان"، لينقل إلينا أحاديثَه المسهبة عن البلاغة ؛ فنجد لموضوعات البلاغة والفصاحة والبيان صدى قويًّا في أقواله ؛ إذ تعرَّض لتعريفات البلاغة عند الأمم السابقة ، كما أثار بعض القضايا البلاغية العامة ؛ كعيوب جهاز النطق ، والفنون البيانية كالمجاز والتشبيه والبديع والاستعارة وغيرها ، وعلى كثرة ما كتبه الجاحظُ في البلاغة لم يكن يُعنى بوضع المصطلحات ، أو صياغة الحدود والتعريفات ؛ وإنما كان أديبًا بليغًا بطبعه وعقله وذوقه كما وصفه مازن المبارك فقال : «على كثرة ما كتب في البلاغة لم يكن يُعنى بوضع المصطلحات ، أو صياغة التعريفات والحدود ، وإنما كان أديبا بليغا بطبعه وعقله وذوقه ، فكان يقف أمام النصوص ليشرحها ، أو يعلق

*[3] هكذا وصفه شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ)

عليها ، أو يدل على ما فيها من مواطن الجمال أوحسن البيان.»[4] وبسبب ما تقدَّم من الكلام ، عُدَّ الجاحظ في نظر الكثيرين مؤسسًا للبلاغة العربية ورائدًا لها.

وظهر بعد ذلك كتابُ "الكامل في اللغة والأدب" لأبي العباس المبرد (286هـ) ، وهو على الرغم مما يدل عليه اسمُه ، غيرُ مقصور على اللغة والأدب ؛ وإنما تناوَل كثيرًا من المسائل البلاغية مما يتصل بمباحث المعاني ؛ كالإيجاز والإطناب والمساواة ، وخروجِ بعض الأساليب عن مقتضى الظاهر، ومباحث البيان كالتشبيه – الذي أفرَد له بابًا أطال فيه الحديث – والكناية وغيرها من الفنون ، والحقيقة أن هذا الكتابَ جمع ثروة بلاغية قيِّمة ، أفاد منها من جاء بعده من العلماء .

والملاحَظ على الكتب التي مرَّت معنا أن البلاغة لم تكن قد وصلت بعدُ إلى مرحلة إفرادها بالتأليف ؛ وإنما هي في الحقيقة مرحلة ممهدة لذلك ، ليظهر أول مؤلف في البلاغة على يد عبدالله بن المعتز(296هـ) سماه "البديع" ولم يقصد بالبديع قسيميْ البيان والمعاني وهي العلوم الثلاثة التي تتألف منها البلاغة ، وإنما عنى به البلاغة ككل ؛ والذي ألفه نصرة لأصحاب الطبع على حساب أصحاب الصنعة بعد أن برز صراع حول قضية تجديد الشعر العربي وظهور فئتين من أنصار الشعر؛ فئةٌ محافظة ترى البلاغة والجمال في الشعر القديم بكل مواصفاته وتقاليده ، وفئةٌ تأثَّرت بالثقافات الوافدة من منطق وفلسفة.. ترى البلاغة فيما استحدثه الشعراءُ المولَّدون؛ أمثال أبي نواس وأبي تمام وبشار بن برد ، وأمام هذا الجدلِ برَز من فئة المحافظين الشاعرُ عبدالله بن المعتز متصديًا لأنصار المذهب المعاكس ومفنِّدًا

[4] – المبارك ، مازن – الموجز في تاريخ البلاغة – دار الفكر ، دمشق – ط : 6 / 2006 – ص:58–59

زعمَهم في كتابه (البديع) لأن تكوين ابن المعتز الأدبيُّ واللغوي ، وحسُّه الذوقي المرهف أهلاه للخوض في هذه المعركة والدفاع عن الشعر القديم الأصيل ، فتناول بلاغةَ الشعر العربي وجمالياته تناولًا نظريًّا ، واختصها بكتاب ميَّز فيه بين أبوابها، فكان له فضل السبق إلى إبراز هذا الفن ودفعه إلى الاستقلال ، ولم يفُتِ ابنَ المعتز أن ينبه على سبقه إلى جمع فنونه قائلا: « وما جمع فنونَ البديع ولا سبقني إليه أحدٌ.»[5]

[5] – ابن المعتز، أبو العباس عبدالله – البديع (تح:عبدالمنعم خفاجي) – دار الجيل، بيروت – ط :1 /1990– ص : 152

المحاضرة رقم: 02 / العوامل الداخلية والخارجية المساهمة في نشأة البلاغة (تابع)

ما أن أطل القرن الرابع الهجري حتى طالعنا قُدامة بن جعفر(337هـ) بمصنفه"نقد الشعر" متأثرا بمنهج يغلب عليه المنطق اليوناني ، ويقوم على الحدود والتعريفات ، ويُولِي عنايةً خاصة للتقسيم والتحليل ، ويعنينا من ذكر كتاب قدامة خلال مسيرة تطور الدرس البلاغي عنايتُه بكثير من المباحث البلاغية التي تُعَدُّ في نظره شروطًا إلزامية للأسلوب إذا أُريدَ له بلوغ مرتبة الجودة والجمال، وهذه المباحثُ تتوزع على الأقسام التي آلت إليها البلاغةُ لاحقًا منها : التتميم ، الإيغال ، المساواة ، التشبيه ، الاستعارة ، الإرداف ، التصريع ، السجع ، الجناس...

وإذا كان قدامة بن جعفر قد سلك طريقة الحدود والتعريفات والتقسيمات في كتابه المذكور آنفًا، فإن جولة سريعة في الكتب التي برزت إلى الوجود بعده ، تعيدنا إلى البلاغة ممتزجةً بالنقد والأدب ؛ إذ لا مندوحة لأحدهما عن الآخر؛ فلا يقوم نقدٌ بلا بلاغة ؛ لأنها عنصر من عناصره ولا تقوم بلاغة بلا أدب.. من هذه الكتب "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي(322هـ(و"الموازنة بين الطائيين" للآمدي (371هـ(و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجُرجاني(392هـ) ويكثُر الحديث في هذه الكتب عن شتى الفنون البلاغية ؛ من استعارة وتشبيه وجناس وطباق... وعما يُستحسن من هذه الفنون وما يُستقبح، كما يكثُر الحديث فيها عن الصور البيانية وما بينها من تشابهٍ أو تفاوت على اختلاف بين الشعراء ، والحديثُ عن هذه الفنون يحضر لأغراض نقدية بالدرجة الأولى ؛ وبهذا تقوم هذه

الفنون مقامَ المعايير والمقاييس التي يحتكم إليها الناقدُ بهدف المفاضلة ورصد مواطن الجودة والرداءة في الإنتاجات الأدبية.

وكذلك الكتب التي تلتها نلاحظ أنها اتخذت من فنون الكلام ؛ شعره ونثره موضوعًا لها مثل كتاب "الصناعتين: الكتابة والشعر" لأبي هلال العسكري (395هـ) ، وكتاب "العمدة في صناعة الشعر ونقده" لابن رشيق القيرواني (463هـ)، وكتاب "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي (466هـ).

وقد تناول كلٌّ من هؤلاء فنونَ البلاغة والقضايا المتصلة تناولًا يكشف عما يحتاجه الفن أو الصناعة من عوامل الحسن وشروط الجودة ؛ فالعسكري كتابُه مؤلَّف من عشرة أبواب ، مقسمة إلى ثلاثة وخمسين فصلًا ، اشتملت على عدد من القضايا البلاغية منها: تحديد موضوع البلاغة ، تمييز جيد الكلام من رديئه ، معرفة صنعته ، حسن الأخذ وقبحه ، الإيجاز، الإطناب، التشبيه... على أن العسكري لم يبخس حقَّ سابقيه من الفضل ولا سيما الجاحظ ، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر.

أما "العمدة في صناعة الشعر نقده" لصاحبه ابن رشيق القيرواني (463هـ) ، فلا يخلو من الحديث عن العديد من أبواب الفنون البلاغية والقضايا النقدية كالمجاز، والتشبيه، والتمثيل، والتجنيس، والمقابلة، والمبالغة ، والالتفات وغيرها... وهي أبواب تصلح أن تكون مرآةً لما وصل إليه علمُ البلاغة حتى عصر مؤلفها.

وبرزت بعد ابن رشيق القيرواني فضائلُ ابن سنان الخفاجي(466هـ) في كتابه "سر الفصاحة" ؛ حيث أبان عن أفكاره وآرائه في أثناء حديثه عن البلاغة ، ومما تعرَّض إليه ابنُ

سنان تفريقُه بين الفصاحة والبلاغة ؛ على اعتبار أن الأُولى من عوارض الألفاظ ، بينما الثانية من عوارض المعاني ، وكان لهذا الرأيِ صداه في المؤلفات التي أتت بعده ، كما عقَد صاحب"سر الفصاحة" للأصوات مبحثًا، وبحثها من جهة مخارجها وصفاتها بحثًا جيدًا، مستعينًا بجهود علماء اللغة والتجويد ممن سبقه.

إضافة إلى ما سبق ، استعرض الخفاجيُّ أقوال متقدِّميه في البلاغة ، وناقش ووازن ، وفاضَلَ بين مصطلحاتها وبين ما تحمله من أفكار ولفتات بلاغية ، وتناول عددًا من القضايا البلاغية بالحديث والشرح ، فكان في كل ذلك عالمًا متميزَ الرأي واضحَ الشخصية.

في هذه الفترة ظهر التأليف الإعجازي بدافع المنافحة عن الدين بعد فشو ظاهرة القول بالصَّرفة [*6] فألف أبو الحسن الرماني(384هـ) "النكت في إعجاز القرآن" وأبوسليمان الخطابي (388هـ) "بيان إعجاز القرآن" والباقلاني(403هـ) "إعجاز القرآن" وانتهى التأليف الإعجازي إلى فارس القرن الخامس بلا منازع عبدالقاهر الجرجاني (471هـ) فقد حطت البلاغة في رحابه وانتهت رئاستها إلى أعتابه ، فجلى غوامضها ورد فروعها إلى أصولها ، واكتملت لديه نظرية النظم بعد أن ساقها من سبقوه إلى حياضه وأناخوها ببابه ، ومع اعترافه بصعوبة هذا العلم وتداخل إشاراته ورموزه رادا منشأ هذه الصعوبة إلى علو كعب من تكلموا في البلاغة فأساليبهم رفيعة لا تنقاد إلا لمن هو في مرتبتهم ، فضلا عن تشعب الأساليب البلاغية تشعبا يند عن الحد والحصر ، فلا تعرف لها نهاية ولا تحد لها غاية ، فاضطلع الجرجاني بمهمة شرح ما أُجمِل وتوضيح ما غمُض وتجلية ما خفي ، فسلك مسلكا مغايرا

[*6] الصَّرفة – بفتح الصاد المشددة وسكون الراء – هي صرف همم من نزل القرآن متحديا لهم عن معارضته وإن كانت مقدورا عليها في نظرهم ، إلا أن العائق كان أمرا خارجا عن مجاري العادات ، فصار كسائر المعجزات.

لمن سبقه بعد أن غربل آثارهم واستوعبها وخرج بمفاهيم بلاغية واضحة المعالم رشيقة العبارة سهلة التناول ، فعمد إلى إنهاء الخلاف التاريخي بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، وأرجع المزية إليهما معا عندما يتوحدان وينسكبان في بوتقة النظم.

والجرجاني(471هـ)في كتابيه "دلائل الإعجاز"وأسرارالبلاغة" حريصٌ على ترديد تلك الأفكار؛ لأنها المقدمات الصحيحة ، والمنطلقات المعرفية الضرورية لبيان وجوه إعجاز الكلام الربَّاني، وأسباب تفوُّقه وعلوه وسموه على الكلام البشري، وهو في ذلك كله استطاع أن يرسي أسسَ علم المعاني في "دلائل الإعجاز"، مسهبًا كلامه على عدد من أساليبه ؛ كالتقديم والتأخير، والاستفهام ، والنفي، والحذف، والفصل والوصل... كما تضمن كلامه بعض المباحث البيانية بوصفها ضربًا من ضروب التركيب ، وفيها تجلو الصور ويحسن التأليف ؛ كالاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل، على أساس أن هذه الهيئات التركيبيةَ يصدُقُ عليها من مبادئ النحو ما يصدق على غيرها من أنواع النظم الأخرى.

ويواصل جهودَه البلاغية في كتابه "أسرار البلاغة"، الذي خصَّه بعلم البيان، فتعرَّض لجملة من مباحثه؛ كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز، وفصَّل في أقسامها، علاوة على ذلك، حازت بعضُ الفنون البديعية حظًّا من حديث الجرجاني؛ منها: الجناس والطباق، وبيَّن كيف أن لهذه الفنون ارتباطًا بالمعنى على خلافِ ما يتوهَّمه الكثيرون من أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ، ولم يفُتِ الجرجانيَّ أن ينبه هاهنا على ترك الاستكثار منه، وذم الولوع به، ما لم يأت بنصرة من المعنى مقتضيًا له في الكلام.

تبوَّأَ عبدالقاهر منزلةً رفيعة في تاريخ البلاغة العربية؛ فقد استطاع بنفاذة فكره، وحسن تذوُّقِه لأسرار الجمال بالعقل والعلم والمنطق – أن يتجه بالبلاغة العربية نحوَ التقنين، وأن يمازج بين العلم والذوق؛ فحسْبُنا أن نطالع كثرةَ تحليله للأمثلة والشواهد الشعرية والأدبية، لنتيقن أنه لا غنى عن ملكة الذوق في حيز البلاغة.

وبعد عبدالقاهر الجرجاني حمل مشعلَ البلاغة الإمامُ المفسر واللغوي النحوي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(538هـ) وقام يحمل عنه عبءَ العمل البلاغي، ويُتم رسالتَه في شرح أسرار الإعجاز القرآني وبيان دقائق الجمال الأدبي ؛ فأتى من كل ذلك أكلًا وثمرًا تمثَّل في تفسيره البديع "الكشاف" ، وقد نزع الزمخشريُّ في مسيرته العلمية منزعَ الجرجاني ، فتناول البحث البلاغي تناولًا أدبيًّا وذوقيًّا وعقليًّا ومنطقيًّا بدافع استكشاف أغوار القرآن العظيم والوقوف على لطائفه وبدائعه ودقائقه البيانية ؛ لذلك كان يعتقد أن تفسير القرآن لا يقوم إلا بمعرفة علمَي المعاني والبيان ، وهما علمانِ ضروريان لكل من أراد ولوجَ بوابة التفسير مهما كان مبلغه من العلوم الأخرى.

وما ان أطل القرن السابع حتى لاحت بوادرُ الجمود والانحراف ، وفترتْ مكانةُ الذوق والحس في البلاغة وفي تقويم آيات الجمال الأدبي ؛ فلم تعد البلاغة قائمة إلا على أساس كثرة التفريعات والتقسيمات ، ووفرة الحدود والقوالب الجامدة ، مما تسبَّب في فقدانها لكثير من المقومات الأدبية، والأسرار الجمالية ، ولعل فخر الدين الرازي (606هـ) أول من ابتدأ هذه الحلقة بتلخيصه كتاب "دلائل الإعجاز" تلخيصًا أخذ يبتعد به عن بلاغة النصوص ، ويقترب

به من الحدود والتعريفات ، ثم بلغت النهاية على يد أبي يعقوب السّكاكي(626هـ) في الجزء الثالث من كتابه "مفتاح العلوم."

وتعُودُ القسمةُ الثلاثية (البيان، المعاني، البديع) لعلم البلاغة إلى السّكاكي نفسِه ، وإن لم يشر إلى البديع بالاسم وترك هذه المهمة لملخص كتابه بدر الدين ابن مالك (686هـ) وبقي هذا التقسيم معتمدا عند باقي العلماء إلى يومنا هذا.

وبقي مصنَّف السكاكي مدارًا للتأليف البلاغي ، فبعد ابن مالك تولى مهمة التلخيص والشرح الخطيب القزويني(739هـ) حيث ألف كتاب "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح" ؛ أما الأول فقد سعى فيه إلى تلخيص كتاب المفتاح ، ولما وجد أن الملخص لا يفي بالغرض – لما فيه من الإيجاز والإخلال وعدم الاستيعاب – عمَد إلى وضع كتاب الإيضاح شرحا للتلخيص.

وهذا الذي أصاب البلاغة في عصورها المتأخرة ، يعود السبب فيه إلى علماء البلاغة أنفسهم الذين لم يكونوا بلغاء فـ « لم يدركوا مكانة الذوق في البلاغة وفي تقويم آيات الجمـــال الأدبي ... ولم يكونوا متذوقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوقوها ، فجردوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد ، ثم صنفوا ذلك مستعينين عليه ، كل بحسب ثقافته بالفلسفة والكلام والمنطق ، وفرعوا وقسموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية ـ في معظم الأحيان ـ مما كانت به بلاغة ؛ جاءت مجردة من أسباب الحياة جافة لا روح فيها ، معقدة لا(بيان) يوضحها ، مقيدة بالحدود ، وإذا هي غادرتها فإلى جدل فلسفي لا أثر للبلاغة الحية فيه.»[7]

[7] – المبارك ، مازن – الموجز في تاريخ البلاغة – ص : 108

المحاضرة رقم : 03 / عوامل تطور البلاغة العربية

نشأت البلاغة العربية في أول أمرها بدافع ديني ، أراد العلماء من ورائه إظهار معجزة البيان القرآني ، وأنها مختلفة عن صنوف القول من شعر ونثر ، فصنفت المصنفات في المجاز والإعجاز والمعاني القرآنية فكانت « دراسة النموذج القرآني باعتباره المثل الأعلى في الأداء الفني بكل ألوانه المعروفة هو بداية الدرس البلاغي والنقدي القديم ، غير أن هذا المنهج الوصفي لم يستمر طويلا حيث انقلب إلى معيارية خالصة اعتبر فيها البلاغيون أنفسهم أوصياء على الإبداع الأدبي من خلال توصيات قننوها وجعلوها سيفا مسلطا على رقاب الأدباء .»[8]

وقد أجمع الباحثون في تاريخ البلاغة العربية أنها لم تنشأ مكتملة الأبواب والمباحث وإنما نشأت– شأن كل علم في بدايته– مجرد أفكار وملاحظات متناثرة على هامش العلوم العربية والإسلامية الأخرى التي سبقتها إلى الوجود والتي لم تكن بدورها قد تبلورت على نحو نهائي.

لقد كانت البلاغة في القرون الغابرة لا تخرج عن كونها مجرد مهارات للإبانة والإفصاح عما يجيش في نفس المتكلم من معان بحيث يتم توصيلها إلى نفس السامع على نحو محكم محسن، يبرهن على ذكاء المتكلم وإدراكه لمتطلبات الموقف ، بالإضافة إلى مؤثرات شخصية أخرى ، تتعلق بشمائل المتكلم وسنه وسمته ، وجماله وطول صمته ، وماالقبة الحمراء التي كانت تضرب للنابغة الذبياني بسوق عكاظ في العصر الجاهلي ليجلس تحتها، ويأتي إليه الشعراء يعرضون عليه شعرهم ليميز بين حسنه ورديئه ، لتدل دلالة واضحة على أن هناك

8 – عبدالمطلب ، محمد – البلاغة والأسلوبية – الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة – ط : 1 / 1994– ص : 258

مقاييس معينة كان يختار وفقها أفضل الشعر، وهذا دليل على أن العرب في الجاهلية قد عرفوا البلاغة ، ولكن البلاغة الفطرية البسيطة البعيدة عن التقعيد والتعقيد ، ولا بد من الإشارة إلى أن البلاغة في بدايتها أطلق عليها اسم البديع ومن هذا المنطلق أطلق ابن المعتز على كتابه اسم "البديع"، بالرغم من أنه تناول فيه مختلف ألوان البلاغة من استعارة وتشبيه وكناية وتعريض بالإضافة إلى ألوان البديع ، ومن البلاغيين من أطلق اسم البيان على البلاغة كابن وهب صاحب كتاب :"البرهان في وجوه البيان" ، وضياء الدين ابن الأثير(637هـ) صاحب كتاب "المثل السائر" ، ووجه تسمية البلاغة بعلم البيان يرجع إلى أن معنى « البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ولا شك في تعلق الثلاثة به تصحيحا وتحسينا »[9] ولها تعلق بالكلام الفصيح المذكور ، يقول بدوي طبانة : « إن المتقدمين كانوا يسمون علم البلاغة وتوابعها بعلم نقد الشعر، وصنعة الشعر، ونقد الكلام ، وفيه ألف أبو هلال العسكري كتابا سماه "الصناعتين" ويعني صناعتي النظم والنثر، وألف قدامة بن جعفر الكاتب كتابا سماه "نقد الشعر" وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة عند المتأخرين.»[10] ومن أوائل العلماء الذين بحثوا في البلاغة وكتبوا ما يتعلق بها في القرن الثالث الهجري أبو عبيدة معمر بن المثنى(209هـ) وكان من أئمة الأدب والنقد، الذي حّلل في كتابه "مجاز القرآن" بلاغة الكثير من آيات القرآن الكريم ثم جاء الجاحظ (255هـ) الذي

---

[9] – الأخضري ، عبدالرحمن – الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون مع شرحه حلية اللب المصون للدمنهوري – دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء (المغرب) – ط : 1 / 2015 – ص : 42

[10] – طبانة ، بدوي – علم البيان – دار الثقافة ، بيروت – دط /1981– ص : 13

جمع في كتابه "البيان والتبيين" الكثير من بلاغات العرب وتحديدهم لمعنى البلاغة والفصاحة ، إلا أن تناوله للبلاغة كان بسيطا وغير منظم ولا مقعد ، ومن المسائل التي تناولها:

– الكلام على صحة مخارج الحروف ، ثم على العيوب التي يسببها جهاز النطق كاللسان أو الأسنان أو ما قد يصيب الفم من التشوه.

– الكلام على سلامة اللغة ، والصلة بين الألفاظ والعيوب الناجمة عن تنافر الحروف.

– الكلام على الجملة والعلاقة بين المعنى واللفظ ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب والملاءمة بين الخطابة والسامعين لها والملاءمة بين الخطبة وموضوعها.

– الكلام على هيئة الخطيب وإشاراته .

ثم جاء بعده عبد الله بن المعتز(296 هـ) الخليفة العباسي وألّف كتابه"البديع" فجعل للبديع خمسة أنواع هي: الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامي ، وجعل محاسن الكلام في الشعر ثلاثة عشر هي: الالتفات ، والاعتراض والرجوع وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه في القوافي ، وحسن الابتداء ، وقد ألّفه ليبين أن المحدثين لم يخترعوا البديع وإنما وجد عند العرب منذ القديم في العصر الجاهلي وفي القرآن الكريم ، والعصر الإسلامي وقال فيه إنه لم يسبق إلى جمع علوم البديع ومن أراد من الباحثين بعده أن يضيف إلى ما جمع شيئًا فله ذلك ومن اقتصر عليه فله أيضا اختياره ، وجاء بعده قدامة بن جعفر(337هـ) فألف كتابه" نقد الشعر" ، وأشار إلى أنه قد ألفه ليكمل النقص في أقسام

البيان الذي لاحظه في كتاب الجاحظ البيان والتبيين وقد تحدث في كتابه عن صفات جودة الشعر وهي عنده مقاييس البلاغة ، أما محاسن الكلام عنده فهي : الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والتتميم وهو الاعتراض عند ابن المعتز، والمبالغة ، والإشارة، والإرداف والتمثيل والمقابلة، والتوشيح وهو رد أعجاز الكلام على ماتقدمها عند ابن المعتز، والإيغال ، والتكافؤ ويعني به الطباق ، وبعده ظهرت دراسات بلاغية لبعض المتكلمين، أولهم علي بن عيسى الرماني(384 هـ) أحد أعلام المعتزلة في عصره ، والذي ألف كتاب "النكت في إعجاز القرآن" ، وقد كتب رسالته هذه جوابا عن سؤال أحدهم وقد طلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل في الحجاج ، ويستهل الرسالة برد تلك النكت إلى سبع جهات ، هي ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياس القرآن بكل معجزة، وما يهمنا منها حديثه عن البلاغة، ويبتدئ حديثه بتقسيمه لها إلى ثلاث طبقات عليا ووسطى، ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة ، وجعل للبلاغة عشرة أقسام، هي: الإيجاز والتضمين والتشبيه والاستعارة والتلاؤم، والفواصل ، والتجانس، والتصريف والمبالغة وحسن البيان ، يقول شوقي ضيف عن الرماني : «أنه أّضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقوه ، فقد حدد بعض فنونها تحديدا نهائيا ، ورسم لها أقسامها رسما دقيقًا.»[11]

[11] – ضيف ، شوقي – البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف ، القاهرة – ط : 08 / 1990 – ص : 107

ومن دراسات المتكلمين في البلاغة دراسة أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (406هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" ، وهو من أعلام المتكلمين في عصره أفرد في كتابه هذا جزءا تحدث فيه عن البديع ليرى هل يمكن أن يعلل الإعجاز القرآني بها أم لا يمكن ، لقد تحدث في هذا القسم عن الاستعارة والإرداف ، والمماثلة – وهويتفق فيها مع العسكري في التسمية– والمطابقة – آخذا إياها عن ابن المعتز– والجناس ، والموازنة ، وأخذ عن قدامة: المساواة ، والإشارة ، والمبالغة ، والغلو، والإيغال ، والتوشيح ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير، والتتميم ، والترصيع ، والتكافؤ، ويقصد بها المطابقة والتعطف وهو ما سماه قدامة المطابق، وتحدث عن السلب والإيجاب على أنه فن مستقل عن الطباق كما تحدث عنه العسكري ، وتحدث عن الكناية ، والتعريض وجعلهما من ألوان البديع كابن المعتز وتحدث عن العكس والتبديل ، والالتفات والتذييل ، وجعله كالعسكري من فنون البديع ، بينما ألحقه المتأخرون بالإطناب من علم المعاني وألحق بالبديع الاستطراد ، وقد أدخله ابن المعتز بباب الخروج من معنى إلى معنى، كما ألحق التكرار، بينما نجد العسكري قد ألحقه بالإطناب بقصد توكيد القول لدى السامع، وألحق بالبديع الاستثناء وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم كالعسكري، ذكر في نهاية فصله أنه لم يذكر كل فصول البديع وإنما ذكر جزءا منها.

ومن دراسات القرن الثالث الهجري في البلاغة دراسة محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي الأصبهاني(322هـ) الذي ألف كتاب "عيار الشعر"، وتحدث فيه عن صناعة الشعر والميزان الذي تقاس به بلاغته.

وفي القرن الرابع الهجري قام البلاغي أبو هلال العسكري395)هـ(بتأليف كتاب "الصناعتين" وقصد بالصناعتين النثر والشعر، وتناول في الباب الخامس من كتابه هذا الإيجاز ، والإطناب ، وتحدث عن التشبيه في الباب السابع مقتديا بالرماني وتحدث في الباب الثامن عن السجع ، والازدواج وأدخل فيهما فواصل القرآن خلافًا للرماني والباقلاني ، وأفرد الباب التاسع للبديع ، وجعله خمسة وثلاثين فنًا ، أخذ جلهاعن قدامة وابن المعتز، وزاد ستة من عنده هي : التشطير، والمجاورة ، والتطريز، والمضاعفة ، والاستشهاد ، والتلطف .

ثم جاء ابن رشيق القيرواني)463هـ(وألف كتاب "العمدة في صناعة الشعر ونقده" ، جعله في مائة باب ، جمع فيه كل ما قدمه البلاغيون من قبله في البيان والبديع ، والمسائل الجديدة التي قدمها للبلاغة ، في باب البديع وهي: نفي الشيء بإيجابه ، وقال عنه إنه ضرب من المبالغة ، والاطراد، أي أن تطرد أسماء آباء الممدوح من غير كلفة ؛ كقول الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد* وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل**

ثم جاء ابن سنان الخفاجي)466هـ(وألف كتابه"سر الفصاحة" وقد فصل في كتابه هذا الحديث عن الفصاحة فبدأ حديثه عنها ببيان الفرق بينها وبين البلاغة ، وجعل الفصاحة خاصة بالألفاظ بينما جعل البلاغة عامة في الألفاظ والمعاني، وبذلك كان كل كلام بليغ فصيحا ولم يكن كل فصيح بليغا، وقسم الفصاحة إلى فصاحة الكلمة المفردة ، فذكر شروط فصاحتها، وفصاحة الكلام فتحدث عن شروطه.

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني)471هـ(ووضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان بشكل منظم وواف ، والجدير بالذكر أن هذين العلمين لم يطرحا بشكل نظرية محددة الجوانب إلا على يديه وقد عرض الأولى في :"دلائل الإعجاز"، والثانية في "أسرار البلاغة" ، وكان بحثه لهذين العلمين بحثا علميا ، ونظرته نظرة فنية ، بينما كان اهتمام من سبقه بأبواب البلاغة لأنها أبواب ذات شأن كبير من أبواب علم الأدب ، ولا يعنون فيها بشرح تعريف خفي ولا بتحقيق مسألة مضطربة فعني هو في كتابيه بذلك كله ، وأملى فيهما من القواعد ما شاء الله له أن يملي، وأحكم بيانها بضرب الأمثلة والشواهد ، وكان بهذا أول من وضع أسس الطريقة التقريرية في تدوين هذه المسائل ؛ لكن الفصل بين العلوم البلاغية الثلاثة :البيان والبديع والمعاني لم يتضح عنده إذ كان يمزج ما بينها ونلاحظ أنه يقرن بكلمة البيان في"دلائل الإعجاز" كلمتا الفصاحة والبلاغة وجعلها جميعا ذات دلالة واحدة ، ويرى علوم البلاغة علما واحدا تتشعب أبحاثه إلى أن جاء الزمخشري (538 هـ) وتناول في تفسيره "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" جوانب من البلاغة ، وقيل إنه أول من ميز بين علمي المعاني والبيان، واكتمل عنده هذان العلمان، أما علم البديع فلم يكن يعده علما قائما بذاته.

ويرى شوقي ضيف في كتابه"البلاغة تطور وتاريخ" أنه لم يعد هناك إبداع بالبلاغة بعد الجرجاني والزمخشري وإنما كانت مرحلة جمع وتصنيف وتقعيد وفصل للبلاغة عن الأدب ، وسمى هذه المرحلة بمرحلة التعقيد والجمود في البلاغة.[12]

[12] – ضيف ، شوقي – البلاغة تطور وتاريخ – ص : 271

وظهر السكاكي 626)هـ) الذي ألف كتابه "مفتاح العلوم" وتحدث في القسم الثالث منه عن علم المعاني وعلم البيان وملحقاتها من الفصاحة والبلاغة ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، التي تقصد لتحسين الكلام ذيلا لهذين العلمين وهي التي خصت بعد ذلك باسم علم البديع.

وقد نال هذا الكتاب شهرة فائقة في ميدان البلاغة، حيث قام الكثير من الباحثين بدراسته وشرحه وتلخيصه حتى كأنه لم يؤلف في البلاغة كتابًا غيره، فاستأثر باهتمامهم وعنايتهم، وقام بشرح القسم الثالث من كتاب "مفتاح العلوم" عدد كبير من العلماء منهم قطب الدين الشيرازي) 710هـ) في كتاب سماه "مفتاح المفتاح" ، ومظفر الخلخالي) 745هـ) في كتابه "شرح المفتاح" والشريف الجرجاني) 816هـ) في كتابه"المصباح في شرح المفتاح للسكاكي" وابن كمال باشا) 940هـ) ألف "حاشية" على شرح المفتاح ، وممن عنوا بتلخيصه بدر الدين مالك) 668هـ) في كتابه "المصباح في المعاني والبيان والبديع" وجلال الدين القزويني (739 هـ) وسمى كتابه "تلخيص المفتاح" وهو أشهرها وعلى هذا التلخيص ألفت شروح مطولة منها : "شرح تلخيص المفتاح" لسعد الدين التفتازاني (791هـ) و"عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح" لبهاء الدين السبكي (773هـ) و"مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح" لأبي يعقوب المغربي (1168هـ) وجمعت هذه الشروح في كتاب واحد طبع باسم "شروح التلخيص" وممن نظمه شعرًا جلال الدين السيوطي (911هـ) في كتابه "عقود الجمان" ، وعبدالرحمن الأخضري) 983هـ) وسمى نظمه "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون."

فكل من جاء بعد السكاكي سار على نهجه ونسج على منواله ، إلا أنها لا تخرج عن كونها ترديدا وتكرارًا لمادته ، فهي محاولات قصد بها الإيضاح والتبسيط عن طريق الإيجاز

والتلخيص ، ولا شك أن هذه الشروح والتلخيصات والمنظومات تدل على عناية أصحابها منذ عصر السكاكي وما بعده بالمناقشات العلمية والمماحكات اللفظية دون العناية بتربية الذوق، ففقدت البلاغة بذلك هدفها الرئيس ، فنلاحظ أن علم البلاغة تطور تطورا كبيرا في العصر العباسي ، إذ لم تخل فترة زمنية من فتراته دون وجود باحث مجتهد ، طُوّر هذا العلم على يد الباحثين السابقين تطورا واكب تطورات الأدب في ذاك العصر العملاق ولم يجمد هذا التطور إلا في أواخر العصر العباسي ، ومع بداية عصر الانحدار.

وخلاصة القول أن البلاغة العربية تناولها بالبحث الكثير من الدراسين العرب ، إلا أن ما كتبوه فيها لم يكن غير آراء وإشارات لم يرتقوا بها إلى أن تكون فَنا قائما بذاته وفق أسس وقواعد محددة يسير على هديها الأدباء ، ويقيسون بمقاييسها الفنية أدبهم ويستجلون سر جماله ، والذي صاغها فَنا له قواعده ومبادئه هو عبد القاهر الجرجاني، ولكنه لم يقسم هذا العلم ويبوبه وينظمه ، ومن قام بذلك هو السكاكي بعد أن أخذ تلك العلوم عمن سبقه من البلاغيين ، ثم جاء بعده القزويني(739هـ) فألّف التلخيص والإيضاح ، وجمع في هذا الأخير الكثير من البحوث البلاغية العميقة المفيدة ، لذلك اختلفتْ الآراء حول الواضع الأول لعلوم البلاغة فقد ذهب ابن خلدون إلى إن السكاكي هو الواضع لها ، بينما أشار طه حسين إلى أن الجاحظ هو واضع هذه العلوم ، بينما الجمهور من العلماء ذهب إلى أن الواضع لها هو عبد القاهر الجرجاني ، غير أن الذي يجمع عليه الباحثون هو أن البلاغة القديمة – أي قبل الجرجاني – استندت في معظم مباحثها على معالجة النماذج الراقية من إبداعات الشعراء والناثرين ، وما أُثر عنهم من قول بليغ لرصد أوجه الحسن في الأداء الفني ووضع

اليد على مواطن الفنية والجمالية في هذه الإبداعات ، ولم يستمر هذا المنهج طويلا حتى تتكب علماء البلاغة هذه الطريق وسقطوا في معيارية خالصة نصبوا فيها أنفسهم أوصاء على الإبداع الفني ، فالجميل ما وافق مقاييسهم والمستهجن ما مجته هذه المقاييس ، يقول محمد عبد المطلب عن هذه القواعد التي يحتكم إليها علماء البلاغة للحكم على الإبداعات الأدبية: »وأصبحت هذه القواعد الجمالية ذات صبغة شاملة ، لا تكاد تفرِّق بين طبيعة الجمال في كل لون من ألوان الإبداع شعرا كان أونثرا ، بل قاست الأدب بمقدار قربه أو بعده من مقاييس البلاغة المستقاة أساسا من طريقة التعبير القرآني ، باعتبارها صالحة لكل مكان وزمان ، لأنها مستقاة من أصل صالح لكل مكان وزمان ، وتناسى البلاغيون في هذا المجال الفارق بين كتاب منزل من السماء ، من صنع قدرة الهية تخلق لنفسها ما تشاء من المقاييس، حتى قال عبد القاهر: إن لها نظما متفردا لا يمكن تكرار أنماطه في أي فن قولي آخر ؛ وبين أدب يبدعه أهل الأرض يحتمل النقص والكمال كما يحتمل الحسن والقبح .»[13]

13 – محمد عبد المطلب – البلاغة والأسلوبية – ص : 259 – 260

المحاضرة رقم : 04 / علم المعاني

تعريفه و مباحثه

يُعنَى علم المعاني بدراسة تركيب الجملة ، ويختلف عن علم النحو في أن هذا الأخير ينظر في الكلام ومدى صحته أو مدى مطابقته لقواعد اللغة ، أما علم المعاني فيسعى إلى ربط الصحة النحوية بالصحة الدلالية ، ويبحث التوافق الموجود بين الكلام وبين المقام ومدى مطابقته لمقتضى الحال والنظر في القرائن الدالة على ذلك ، ومن ثمّ عرفه البلاغيون بقولهم هو» أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له.»[14] ، وهو بالتالي الطريق التي يجب أن يسلكها الأديب للوصول إلى هذه الغاية وهنا يتوجب على الأديب أن يخاطب كل مقام بما يفهم ، وإلا ضاعت الغاية وذهبت الفائدة ، والتي من أهمها الكشف عن إعجاز القرآن الكريم والوقوف على أسرار تراكيبه والوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلامِ العرب ومنظومِه ليحتذى حذوه وينسُجَ على منواله .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا العلم لم يكن في بداية أمر البلاغة مميزا عن بقية علومها ، بل كانت مباحثها وحدة شاملة بلا تحديد أو تمييز، وكتب المتقدمين من علماء العربية خير شاهد على ذلك ، ففيها تتجاور مسائل علوم البلاغة ويختلط بعضها ببعض من غير فصل بينها ، وشيئا فشيئا أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال كما أخذت مسائل كل فن بلاغيّ تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى ، وظل الأمر كذلك

[14] – الهاشمي ، أحمد – جواهر البلاغة – شركة القدس ، القاهرة – دط / 2009 – ص : 34

حتى جاء سراج الدين السّكاكي المتوفى (626هـ) فأصّل منهاجه في البلاغة على أسس منطقية حولت البلاغة من فن إلى علم له قواعده ونظرياته التي إن نجحت في تكوين طبقات من البلاغيين فقد فشلت في تكوين البلغاء ، ودخلت البلاغة في طور الجمود بعد أن كان علماء البلاغة يشيرون إلى مواطن الحسن والجمال من الكلام في محاولات للكشف عن العناصر الجمالية في البيان العربي ، ولتربية ملكة الذوق ، وتمكين كل ذي موهبة أدبية من أن يقرأ ويفهم ، ويستحسن ويستقبح ، ويوازن ويفاضل، أو بعبارة أخرى من أن ينقد العمل الأدبي ويحكم عليه ، وفي هذا المنهاج لم تكن محاولة الاهتداء إلى العناصر الجمالية في البيان العربي غاية في حد ذاتها بمقدار ما كانت وسيلة لشحذ الملكات ، وتنمية الذوق ، وإرهاف الحس ، وتكوين البلغاء والنقاد.

ويقسم البلاغيون علم المعاني الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال إلى ثمانية أبواب هي : الإسناد الخبري ، والمسند ، والمسند إليه ، ومتعلقات الفعل ، والإنشاء ، والقصر ، والفصل والوصل ، والايجاز والإطناب والمساواة.

I. الكلام بين الخبر والإنشاء

للمتكلّم أسلوبان في التعبير عن أغراضه هما: الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي ، لأن الملقي يسوق إلى السامع جملة تحتمل أحد أمرين :

أ- إما أن تكون حاملة خبرا معيّنا، وذلك بأن يأتي المتكلّم بمعلومة يفيد المخاطَب ، كقولنا: (الطلبة في فترة امتحانات هذا الأسبوع) ففي هذه الحال يكون محتوى الكلام واقعا قبل

حدوث الفعل الكلامي ، أي أن مضمون الخبر أسبق زمنيا من عناصر الجملة المتلفّظ بها مع احتماله الصدق أوالكذب.

ب – و إما أن تكون هذه الجملة حاملة إنشاء طلب معيّن ولا تتضمن أخبارا تطابق الواقع أو تخالفه ، كقوله تعالى : }يا أيها الناس اتقوا ربكم{[الحج/01] فلا يصح في هذه الحالة أن نقول أن ملقي الخبر صادق أو كاذب.

1- **الخبر : وتعريفا** : » هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته.« [15]، فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا ، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا.

ويقول البلاغيون إن احتمال الخبر للصدق والكذب إنما يكون بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبريّ ذاته ، دون النظر إلى الخبر أو الواقع ؛ إذ لو نظرنا عند الحكم على الخبر بالصدق أوالكذب إلى الخبر أو الواقع ، لوجدنا أن من الأخبار ما هو مقطوع بصدقه لا يحتمل كذبا ، وما هو مقطوع بكذبه لا يحتمل صدقا.

فمن الأخبار المقطوع بصحتها ولا تحتمل الكذب البتة أخبار الله تعالى ، أي كل ما يخبرنا الله به ، وأخبار رسله ، والبديهات المألوفة من مثل : السماء فوقنا والأرض تحتنا ، وماء البحر ملح وماء النهر عذب.

ومن الأخبار المقطوع بكذبها ولا تحتمل الصدق الأخبار المناقضة للبديهيات نحو: الجزء أكبر من الكل ، والأسبوع خمسة أيام ، وكذلك الأخبار التي تتضمن حقائق معكوسة نحو: الأمانة رذيلة والخيانة فضيلة ، ولكن هذه الأخبار المقطوع بصحتها أو المقطوع بكذبها إذا نظرنا إليها ذاتها دون النظر إلى قائلها أو إلى الواقع كانت محتملة للصدق والكذب ، شأنها في ذلك شأن سائر الأخبار.

وتعريف الخبر بهذا الشكل أثار جدلا بين العلماء لأن أخبار الله -عز وجل- الواردة في كتابه والأخبار الواردة عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كيف يقال أنها تحمل الصدق أو

[15] – فيود، بسيوني- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية – مؤسسة المختار، القاهرة – ط : 4- 2015- ص : 42

الكذب ، أو أن الميزان هذا يطبق عليها حتى تحتمل الصدق والكذب؟ وحتى بإضافتهم إلى نهاية التعريف كلمة » بذاته« فإنه من سوء الأدب مع كلام الله المنسوب إليه أن نقطع صلته بقائله – جل وعلا – الذي نال شرفه من شرف المتكلم به ، ومن ثم فكر بعض البلغاء في إيجاد تعريف يناسب كلام الله –عز وجل– وكلام المصطفى – عليه الصلاة والسلام– بحيث إنه يلتئم معه ويتقبله من غير احتراس ومن غير استثناء ، لأن كل قاعدة لا تنطبق على كلام الله –عز وجل– متأدبة معه ليست بقاعدة.

لذا ذهب ناصر بن عبدالرحمن الخنين في كتابه " النظم القرآني في آيات الجهاد" إلى أن الخبر حقيقة مبناه على الإفادة ، وعرفه بأنه : » ما تركب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية والفائدة المباشرة هي التي يسميها البلاغيون فائدة الخبر، والفائدة الضمنية هي التي يسميها البلاغيون أيضًا لازم الفائدة «[16] ، والفرق بينهما: أن فائدة الخبر تساق إلى من ليس في ذهنه علم بالخبر، يعني خالي الذهن.

فصاحب هذا التعريف يرى أنه عندما نعَّرف الشيء نلمح إلى وظيفته وقصده وغرضه الرئيسي الأصلي ، فالغرض الأساسي من الخبر هو الإفادة ، أما الصدق والكذب عارضان من عوارض الخبر، فلا يُعرّف الشيء بعارضه ، فعندما نعرف الإنسان مثلاً هل نقول : إنه الذي يعتريه المرض والصحة ؟ هذا تعريف أخرق ، نقول عن الإنسان : إنه مخلوق خلقه الله –عز وجل– في أحسن تقويم لعبادته ، نأتي بالوظيفة بالغرض الرئيس للشيء ، ومنه

[16] - الخنين، ناصر بن عبدالرحمن– النظم القرآني في آيات الجهاد– مكتبة التوبة، الرياض– ط:1/1996 – ص : 253

فتعريف النحاة أقرب صدقًا وألمس واقعًا لمسألة الخبر –وإن كان الخبر عند النحاة يختلف عنه عند البلاغيين– لأن الخبر عند النحاة هو الجزء المتم الفائدة بعد المبتدأ.

ومفهوم الخبر عند البلغاء أوسع نطاقًا ، أما عند النحاة فإنه أضيق ، ويختص فقط بالمبتدأ والخبر وما في حكم ذلك.

أ– **أضربُ الخبر** :حق الكلامِ أن يكونَ بقدرِ الحاجةِ ، لا زائداً عنها، لِئلا يكونَ عبثاً، ولا ناقصاً عنها، لئلا يُخِل بالغرضِ ، وهو: الإفصاحُ والبيانُ ، لهذا تختلفُ صورُ الخبرِ في أساليب اللغةِ باختلافِ أحوالِ المخاطَبِ الذي يعتريهِ ثلاثةُ أحوالٍ :

أ. -1أنْ يكونَ المخاطبُ خاليَ الذهنِ من الخبرِ ، غيرَ مترددٍ فيه، ولا منكرٍ له وفي هذه الحالِ لا يؤكدُ له الكلامُ ، لعدم الحاجةِ إلى التوكيد نحو قوله تعالى : }الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدنيا{] الكهف [46 / ويسمى هذا الضربُ من الخبرِ ابتدائيا.

أ.-2 أنْ يكونَ المخاطبُ متردداً في الخبر، طالباً الوصولَ لمعرفتهِ ، والوقوفَ على حقيقته، فيستحسنُ تأكيدُ الكلامِ الملقَى إليه تقوية للحُكم ، ليتمكنَ من نفسهِ ، ويطرحَ الخلافَ وراء ظهره نحو: إن الأميرَ منتصرٌ، ويسمى هذا الضربُ من الخبرِ طلبياً) ويؤ تَى بالخبرِ من هذا الضربِ حين يكونُ المخاطبُ شاكا في مدلولِ الخبرِ ، طالباً التثبتَ من صدقهِ.)

أ. -3أنْ يكونَ المخاطبُ منكراً للخبرِ الذي يرادُ إلقاؤه إليه ، معتقداً خلافه ، فيجبُ تأكيدُ الكلامِ له بمؤكدٍ أو مؤكدينِ أو أكثرَ، على حسبِ حالهِ من الإنكارِ ، قوة وضعفاً، نحو: إن أخاك قادمٌ ، أو إنه لقادمٌ ، أو والله إنه لقادمٌ ، أولعمري إن الحقَ يعلو ولا يُعلَى عليه ، وقوله تعالى: }قل إِن هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى{[البقرة /120]} وكقوله تعالى عن النبي يعقوب

عليه السلام: وَإِنهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلمْنَاه{[يوسف/ 68]} وقوله تعالى: فلا أُقسمُ بمواقع النّجوم وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم { [الواقعة/75-76] وكقول أبي العلاء المعري :

وإنّي وإن كنت الأخير زمانه * لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل**

وقول عنترة العبسي :

ولقد أبيت على الطّوى وأظلّه* حتى أنال به كريم المأكل**

ويسمى هذا الضربُ من الخبر إنكارياً ويؤتَى بالخبرِ من هذا الضربِ حين يكونُ المخاطبُ مُنكرًا.

ملاحظتان:

- يكونُ التأكيد في الإثبات ، وفي النفي أيضاً، نحو: ما المقتصدُ بمفتقرٍ ، ونحو: والله ما المستشير بنادمٍ .

- لتوكيدِ الخبر أدوات كثيرة أشهرها: إنَّ ، وأنَّ ، ولام الابتداءِ ، وأحرفَ التنبيه ، والقسمِ ، ونونا التوكيد ، والحروف الزائدة) كتفعل واستفعل) والتكرار، وقدْ ، وأمّا الشرطية ، وإنما واسمية الجملة ، وضمير الفصل ، وتقديم الفاعل المعنوي.

<u>ب – أغراض الخبرِ</u> :

الأَصْلُ في الخَبر أن يُلقَى لأحد غَرَضيْن:

ب.1 – إِفَادَةُ المخاطَبِ الحُكْمَ الذي تَضَمنَتْهُ الجملة ، وَيسمى ذلك الحكمُ فائدة الخَبر، والقصد منه إفادة المتلقي الحكم الذي تضمنه الكلام ، أي إعلامه بمعلومات أو حقائق لم يكن هذا المتلقي على علم من قبل أن يُلقى إليه الخبر، كأن يقال له» نجحت في الامتحان»

أو» لقد ولد لأخيك مولود الليلة» أو» عمري عشرون سنة»، ويدخل في هذا الباب أيضا كل الحقائق العلمية والتاريخية التي تُقدّم لطلاب العلم، و كذا الأخبار السياسية وغير السياسية التي تعرضها– أو قد تفرضها– وسائل الإعلام المسموعة أو المقروءة.

ب.2 – إفادة المخاطبِ أن المتكلم عالمٌ بالحكْمِ ، ويُسَمى ذلك لازمَ الفائدة ، والغرض منه الأصلي هو أن يُعلم المتكلم مخاطَبه بأنه عارف بالحكم أي بمضمون الكلام.

قَدْ يلْقَى الخبر لأغراض أخرى تفُهم من السيَاق منها: الاسترحام ، وإظهار التحسر ، وإظهار الضعف ، والفخر ، والحث على السعي والجد.

ج– خروج الخبر عن مقتضى الظاهر :

لا يكون إيراد الكلام أو الخبر دائما جاريا على مقتضى الظاهر، فقد تجدّ اعتبارات تدعو المتكلم إلى أن يورد الكلام أو الخبر على صورة تخالف الظاهر، أو على صورة تخرج به عن مقتضى الظاهر منها :

ج.1– أن ينزّل خالي الذهن منزلة المتردد الشاكّ إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر ومضمونه ، كقوله تعالى: }وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ{[يوسف/53] ، وكقول أبي الطيب المتنبي:

ترفق أيها المولى عليهم *** فإن الرفق بالجاني عتاب

ج.2– أن يجعل غير المنكر كالمنكر لظهور أمارات الإنكار عليه ، ومثال ذلك قوله تعالى: }ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ{[المؤمنون/15] ، وكقول حجل بن نضلة القيسيّ:

جاء شقيق عارضا رمحه * إن بني عمك فيهم رماح**

ج.3- أن يجعل المنكر كغير المنكر، إن كان لديه شواهد وأدلّة لو تأملها لعدل عن إنكاره ، كأن تقول لمن يجحد فضل العلم : «العلم نافع» ، ولمن ينكر ضرر الجهل : «الجهل ضار» ولمن ينكر ما يسبّبه الفراغ من مفاسد : «الفراغ مفسدة»، وهكذا ...

2- **الإنشـــــاء** : هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

وينقسم إلى طلبي) و(غير طلبي.

أ - **الإنشاء الطلبي:** هو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب حسب اعتقاد المتكلم أو الذي يطلب به الحصول على شيء ما ، وله خمس صيغ أو أنواع : الأمر – والنهي – والاستفهام – والتمني – والنداء وكل واحد منها لا يحتمل صدقا ولا كذبا.

أ.**1**- الأمر وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، ويقصد بالاستعلاء أن ينظر الآمر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه ، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا ، وللأمر أربع صيغ هي :

- **فعل الأمر**: نحو قوله تعالى:}خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها{[التوبة/103]،

وقول سوادة اليربوعي:

ذريني فإن البخل لا يخلد الفتى * ولا يهلك المعروف من هو فاعله**

- المضارع المقرون بلام الأمر: نحو قوله تعالى:}لينفق ذو سَعة من سَعته {[الطلاق/7]

وقول أبي تمام راثيا محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر* فليس لعين لم يفض ماؤها عذر**

- **اسم فعل الأمر**: نحو حيَّ على الفلاح

- **المصدر النائب عن فعل الأمر نحو:** سعيا في الخير.

خروج الأمر عن معناه الأصلي:

ولكن قد يخرج لأمر عن معناه الأصلي إلى معان أخر تفهم من السياق وقرائن الأحوال، ومن هذه المعاني:

- **الدعاء** : وهو الطلب على سبيل الاستغاثة والعون والتضرع والعفو والرحمة وما أشبه ذلك ويكون بكل صيغة للأمر يخاطب بها الأدنى من هو أعلى منه منزلة وشأنا، نحو قوله تعالى: }رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ {[آل عمران/ 193]
- **الالتماس** : وهو طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة ، نحو قول الشاعر محمود سامي البارودي:

يا نديمي من «سرنديب» كفّا ... عن ملامي وخلياني لما بي

- **التمني** : وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى وقوعه إما لكونه مستحيلا ، وإما لكونه ممكنا غير مطموع في نيله، نحو قول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح، وما الإصباح منك بأمثل**

- **التهديد** : ويكون باستعمال صيغة الأمر من جانب المتكلم في مقام عدم الرضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أمر به تخويفا وتحذيرا له ، نحو قوله تعالى: }اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {[فصلت/ 40] ، فالأمر هنا موجه لمن يلحدون في آيات الله

وكقول أبي تمام:

إذا لم تخش عاقبة الليالي * ولم تستحي فاصنع ما تشاء**

- **التعجيز:** وهو مطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه، إظهارا لعجزه وضعفه وعدم قدرته ، وذلك من قبيل التحدي ، كقول الفضل بن يحي البرمكي :

أروني بخيلا طال عمرا ببخله *** وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

- **التسوية** : وتكون في مقام يتوهم فيه أن أحد الشيئين أرجح من الآخر، نحو قوله تعالى: }فاصبروا أَوْ لا تَصْبِرُوا {[الطور/ 16]، فليس المراد في الآية الأمر بالصبر، وإنما المراد هو التسوية بين الأمرين.

أ.2- **النهي** : النهي، وهو طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام ، وللنهي صيغة واحدة وهي المضارع المقرون ب «لا» الناهية الجازمة نحو قوله تعالى: }ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها{[الأعراف/ 56]

خروج النهي عن معناه الحقيقي:

قد تخرج أساليب النهي عن معناها الحقيقي للدلالة على معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال، كما كان الشأن بالنسبة إلى الأمر، ومن هذه المعاني :

- **الدعاء** : وذلك عند ما يكون صادرا من الأدنى إلى الأعلى منزلة وشأنا، نحو قوله تعالى: }رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً{[البقرة/ 286]

- **الالتماس:** وذلك عند ما يكون النهي صادرا من شخص إلى آخر يساويه قدرا ومنزلة ، نحو قوله تعالى : على لسان هارون يخاطب أخاه موسى : }يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي{[طه/ 94]

- **التمني** : عند ما يكون النهي موجّها إلى ما لا يعقل نحو قول الشاعر :

يا ليل طل يا نوم زل * يا صبح قف لا تطلُعِ**

- **التهديد** : وذلك عند ما يقصد المتكلم أن يخوّف من هو دونه قدرا ومنزلة عاقبة القيام بفعل لا يرضى عنه المتكلم ؛ كأن تقول لخادمك : لا تطع أمري !

أ.3- **الاستفهام** : وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة من أدوات الاستفهام الكثيرة والتي منها: الهمزة ، وهل ، أما الهمزة فيطلب بها أحد أمرين :

- **التصوّر**: وهو إدراك المفرد ، أي تعيينه ، وفي هذه الحال تأتي الهمزة متلوّة بالمسؤول عنه ، ويذكر له في الغالب معادل بعد «أم» أو يقدر، كقولنا أعلي مسافر أم خالد، فيجاب: علي مثلا.

- **التصديق** : وهو إدراك النسبة أي تعيينها ، وفي هذه الحال يمتنع ذكر المعادل ، كقولنا : أسافر علي نستفهم عن حصول السفر من عدمه لذا يجاب بنعم أو لا.

وأما هل فيطلب بها التصديق ليس غير، أي إدراك النسبة ، ويمتنع معها ذكر المعادل نحو : هل جاء صديقك؟ والجواب نعم أو لا.

خروج الاستفهام عن معناه الأصلي:

ولكن قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معان أخر تفهم من السياق وقرائن الأحوال، ومن هذه المعاني:

- **التسوية** : وتأتي الهمزة للتسوية المصرح بها نحو قوله تعالى: }إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ{[البقرة/ 6] ، فهم يعلمون مسبقا أنهم أنذروا ومع ذلك

أصروا على كفرهم وعنادهم ، ولهذا يجيء الاستفهام هنا للدلالة على أن إنذار الرسول وعدمه بالنسبة لهم سواء. وبذلك أدى الاستفهام معنى مجازيا بلاغيا هو التسوية غير معناه الحقيقي.

- **النفي:** وذلك عند ما تجيء لفظة الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولا. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: }هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ{[الرحمن/60]؟ أي ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان.

- **الإنكار** : وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر عرفا أو شرعا ، كقوله تعالى:} أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ{[الأنعام/40]؟ وقوله جل وعز:}أليس الله بكاف عبده{ [الزمر/36]؟ وقول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي * ومسنونة زرق كأنياب أغوال**

- **الأمر** : وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة على معنى الأمر، نحو قوله تعالى: }فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ{[الأنبياء/108]؟ أي أسلموا ، وقوله تعالى:}فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ{[المائدة/ 91]؟ أي انتهوا

- **التشويق** : وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلوما له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور، نحو قوله تعالى :} يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ{[الصف/10-11].

- **التعظيم** : ذلك بالخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي واستخدامه في الدلالة على ما يتحلّى به المسؤول عنه من صفات حميدة ، كقوله تعالى : }من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه{[البقرة/255]

- **التحقير** : عند ما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضآلة المسؤول عنه وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل به ، نحو : أهذا الذي مدحته كثيرا؟

أ.4- التمني : هوطلب أمر محبوب لا يرجى حصوله لكونه مستحيلا أو بعيد الوقوع كقول أبي العتاهية :

ألا ليت الشباب يعود يوما * فأخبرَه بما فعل المشيب**

وإذا كان الأمر متوقع الحصول فإن ترقبه يسمى ترجيا ويعبرعنه بـ (عسى) و (لعل) نحو قوله تعالى: }لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً{[الطلاق/ 1]

وللتمني أربع أدوات واحدة أصلية وهي (ليت) وثلاث غير أصلية وهي (هل) نحو قوله تعالى: }فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا{[الأعراف/ 53] ، و(لو) نحو قوله تعالى: }فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{[الشعراء/102]، و(لعل) نحو قول الشاعر قيس بن الملوح :

أسرب القطا هل من يعير جناحه* لعلي إلى من قد هويت أطير**

ولاستعمال هذه الأدوات في التمني ينصب المضارع الواقع في جوابها.

أ.5- **النداء** :وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل «أدعو».

وأحرف النداء ثمان : «الهمزة» ، «أي» ، «يا» ، «أيا»، «هيا» ، «آ» ، «آي» ، «وا».

فالهمزة وأي لنداء القريب ، والأدوات الستّ الأخرى لنداء البعيد.

وقد ينزّل البعيد منزلة القريب ، وعندئذ ينادى بالهمزة وأي ، إشارة إلى قربه من قلب المتكلم وشدة استحضاره في ذهنه ، فصار كالحاضر معه كقول الشاعر ابن حيّوس:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا * بأنكم في رَبع قلبي سكان**

وقد ينزّل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة وأي ، إشارة إلى علو مرتبة المنادى ، أو انحطاط منزلته ، أو غفلته وشرود ذهنه ، كقول الفرزدق هاجيا لجرير مستصغرا له :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم * إذا جمعتنا يا جرير المجامع**

خروج النداء عن معناه الأصلي:

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي من نداء القريب أو البعيد إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، كالإغراء والتحسر والزجر.

- **الإغراء** : قد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى الإغراء كقول أبي الطيب المتنبي مخاطبا سيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي* فيك الخصام وأنت الخصم والحكم**

أعيذها نظرات منك صادقة * أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم**

- **التحسر** : قد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى التحسر كقول ابن الرومي:

يا شبابي! وأين مني شبابي؟ * آذنتني حباله بانقضاب**

لهف نفسي على نعيمي ولهوي * تحت أفنانه اللدان الرطاب**

- **الزجر** : قد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى الزجر كقول شاعر معاصر:

إلام يا قلب تستبقي مودتهم * وقد أذاقوك ألوانا من الوصب؟**

تظل تسعى مدى الأيام تطلبهم* والعمر يذهب بين السعي والطلب**

ب – الإنشاء غير الطلبي: هو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، إنما هو تعبير عن معنى نفسي وله أساليب وصيغ كثيرة منها:

– صيغ المدح والذم من مثل: نعم وبئس، وحبذا ولا حبذا.

– القسم: ويكون بأحرف ثلاثة تجر ما بعدها وهي» الباء«، و»الواو« و»التاء« ، كما يكون بالفعل »أقسم« أو ما في معناه من مثل» أحلف«

– الرجاء : ويكون بحرف واحد هو «لعلّ»، وبثلاثة أفعال هي: عسى، وحرى، واخلولق.

– صيغ العقود: من نحو قولك: بعت، واشتريت، ووهبت، وقولك لمن أوجب لك الزواج » قبلت هذا الزواج.«

II. المسند والمسند إليه

والوصول إلى مزيد من المعرفة بالمعاني الزائدة يستدعي النظر في الجملة من حيث أجزاؤها وأحوال هذه الأجزاء وقيودها، واقترانها بغيرها ، والجملة سواء كانت خبرية أو إنشائية لها ركنان هما: المسند والمسند إليه ؛ فالمسند يسمى المحكوم به أو المخبر به ، وقد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو ما في معناه من نحو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف ، أما المسند إليه فيسمى المحكوم عليه أو المخبر عنه والنسبة التي بين المسند والمسند إليه تسمى الإسناد ، ولكل منهما مواضع :

1 – مواضع المسند :

أ – الفعل نحو: «يأبى» من قولك: يأبى العربي الضيم.

ب – اسم الفعل نحو: شتان بمعنى : افترق، وأوه بمعنى: أتوجع، وبله بمعنى: دع أو اترك.

ج – خبر المبتدأ نحو: «عمل» من قولك : الحياة عمل.

د – المبتدأ المكتفي بمرفوعه نحو: «قائم» من قولك: أقائم أنت بواجبك؟

هـ – ما أصله خبر المبتدأ: ويشمل خبر كان وأخواتها نحو: «معتدلا» من قولك: صار الجو معتدلا، وخبر إن وأخواتها نحو: «فضيلة» من قولك: إن الصدق فضيلة، والمفعول الثاني للأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر نحو: «نادرا» من قولك: وجدت الوفاء نادرا، والمفعول الثالث للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: «محققا» من قولك: أعلمت المجتهد النجاح محققا.

و – المصدر النائب عن فعل الأمر نحو:«إحسانا» من قوله تعالى: }وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً {

[الأعراف/ 53]

2 – مواضع المسند إليه:

أ – فاعل الفعل التام وشبهه نحو: انتصر المدافعون عن أوطانهم. «فالمدافعون» وهو الفاعل هنا قد أسند إليه الانتصار، ولهذا فهو المسند إليه. والشبيه بالفعل مشتقاته، كاسم الفاعل والصفة المشبهة من نحو: أنت الحسن خلقه، «فخلقه» وهو فاعل الصفة المشبهة قد أسند إليه الحسن، ولذلك فهو المسند إليه.

ب – نائب الفاعل، نحو: يكرم الضيف، «فالضيف» وهو نائب الفاعل قد أسند إليه الكرم، فهو المسند إليه.

ج – المبتدأ الذي له خبر نحو: «الحياة» من قولك: الحياة كفاح.

د – ومرفوع المبتدأ المكتفي به نحو: «فضلك» من قولك: ما مجحود فضلك.

هـ – ما أصله مبتدأ: ويشمل اسم كان وأخواتها نحو: «العامل» من قولك:

ظل العامل مشتغلا، واسم إن وأخواتها نحو: «الحق» من قولك: لعل الحق يظهر، والمفعول الأول للأفعال التي تنصب مفعولين نحو:

«الصديق» من قولك: حسبت الصديق مسافرا، والمفعول الثاني للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: «الإهمال» من قولك: أنبأت المقصر الإهمال ضارا.

فالمسند والمسند إليه هما ركنا الجملة الأساسيان، وما زاد عليهما غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد ، والقيود هي : أدوات الشرط ، وأدوات النفي، وحروف الجر، والمفاعيل

الخمسة: المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول فيه، والمفعول لأجله ، والمفعول معه، والحال، والتمييز، والتوابع الأربعة : النعت والعطف والتوكيد والبدل.

ويلحق المسند والمسند إليه – لأغراض بلاغية – أحوال منها الذكر والحذف ، أو التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، أوالتقييد، أوالقصر، أوالخروج عن مقتضى الظاهر في المسند إليه وفي غيره ، وسنعرض في هذه المحاضرات لبعضها .

منذ أن ظهرت العربية كلغة للتواصل والإبداع ومستخدموها ينحون بها الى الإيجـاز والاختصار ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، والعرب تعد البليغ فيها من قدَّم فكرته بأوجز عبارة وألطف إشارة ، ومن هنا كان قولهم المعروف » خيرالكلام ما قلّ ودلّ «.

وبلاغة الحذف لا تقتصر على دلالة غيرها عليها، وإنما تظهر قيمتها في تنبيه المتلقي وإيقاظ شعوره للإحساس بالجزء المفقود من الترتيب اللغوي المعتاد، وهذا يدفع به – أي المتلقي – الى الانتباه والبحث والتأمل ، والغوص في أعماق الرسالة التي تلقاها للوصول إلى معناها الحقيقي الذي يريد المرسل أن يوصله إليه ، فالحذف ليس مجرد تخلص من زائد الكلام ، بل هو تنشيط لخيال المتلقي لإشعاره بالمتعة عندما يفك شفرة النص في تلك اللحظة فـ» المتذوق للأدب لا يجد مَتَاع نفسه في السياق الواضح جدا والمكشوف إلى حد التعرية ، والذي يسئ الظن بعقله وذكائه ، وإنما يجد متعة نفسه حيث يتحرك حسه وينشط ليستوضح ويتبين ويكشف الأسرار والمعاني وراء الإيحاءات والرموز. «[17]

ولم يفت الأوائل أهمية الحذف ومكانته إذ عَدُّوه من أدق أبواب البلاغة وأخطرها وقد وضعه ابن جني على رأس باب(شجاعة العربية)[18]، ووصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله : »هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر ،

[17] – أبو موسى ، محمد محمد – خصائص التراكيب – مكتبة وهبة ، القاهرة – ط : 7 / 2006 – ص : 153-154

[18] – ابن جني ، أبو الفتح عثمان – الخصائص– المكتبة العلمية ، بيروت – دط– دت– ج : 2 – ص : 360

أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ.« [19]

ولنبدأ بمواضع الحذف ثم نشفعها بمواضع الذكر

ا. الحذف:

1- حذف المسند إليه : وهو الركن الأساسي في الجملة لذا حذفه يتوقف على أمرين أحدهما وجود ما يدل عليه عند حذفه من قرينة ، والأمر الآخر وجود المرجح للحذف على الذكر، أما الأمر الأول وهو وجود القرينة الدالة على المسند إليه عند حذفه فمرجعه إلى علم النحو، وأما الأمر الثاني وهو المرجح لحذفه على ذكره فمرده إلى دواع بلاغية ترجح حذف المسند إليه على ذكره ، والمسند إليه الذي يكثر حذفه هو: المبتدأ أو الفاعل.

أ – دواعي حذف المسند إليه إذا كان مبتدأ

أ.1 – الاحتراز عن العبث : وهو ما قامت عليه القرينة وظهر عند المخاطب أن ذكره يعد عبثا فيقلل من قيمة العبارة بلاغيا ، ولهذا الحذف مواضع :

- إذا وقع المبتدأ الذي هو المسند إليه في جواب الاستفهام ، نحو قوله تعالى : }وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ ؟ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ{[الواقعة/27-29]، أي هم في سدر مخضود وطلح منضود.
- وإذا وقع بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط ، نحو قوله تعالى : }مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها{[فصلت/46]، أي فعمله لنفسه ، وإساءته عليها.

[19]- الجرجاني ، عبد القاهر – دلائل الإعجاز – دار المدني ، القاهرة – ط : 3 / 1992- ص : 146

 وإذا وقع المبتدأ بعد القول وما اشتق منه ، نحو قوله تعالى: }فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ{[الذاريات/29] ، أي أنا عجوز عقيم.

أ.2 – ضيق المقام عن إطالة الكلام إما لتوجع وإما لخوف فوات فرصة كقول الشاعر :

لم تبكين؟ مَنْ فقدتِ؟ فقالت * والأسى غالب عليها : حبيبي**

أو كقول من رأى نارا تشتعل في منزل : حريق ! تريد هذا حريق ، وقول الصياد: غزال. يريد: هذا غزال.

أ.3 – تيسير الإنكار عند الحاجة إلى الإنكار : هناك مواقف يصرح فيها المتكلم بذكر شيء ثم تدعوه اعتبارات خاصة إلى جحدها وإنكارها، مثال ذلك أن يذكر شخص بعينه في معرض الحديث عن الكرم والكرماء، فيبدي فيه أحد الحضور رأيه قائلا: بخيل شحيح متجنبا ذكره بصراحة لترك فسحة للإنكار إذا اقتضت الضرورة .

أ.4 – تعجيل المسرة بالمسند ، كأن يلوح شخص بجائزة فاز بها في مسابقة قائلا: جائزتي يريد هذه جائزتي.

أ.5 – إنشاء المدح أو الذم أو الترحم : فالمسند إليه إذا كان مبتدأ يترجح حذفه إذا كان في الكلام قرينة تدل عليه ، كقول عبدالله بن الزبير مادحا عمرو بن عثمان بن عفان :

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه * ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت**

أي هو فتى ... الخ

ب – دواعي حذف المسند إليه إذا كان فاعلا

الدواعي والأغراض التي تدعو المتكلم إلى حذف الفاعل كثيرة ولكنها لا تخرج عن كونها إما لفظية وإما معنوية.

ب.1 – فمن الدواعي اللفظية لحذف الفاعل

- الإيجاز في العبارة نحو قوله تعالى:{وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ{[النحل/126] أي بمثل ما عاقبكم المعتدي به ، فمراعاة للإيجاز أقيم المفعول مقام الفاعل.
- ومنها المحافظة على السجع في الكلام المنثور نحو قولهم: من طابت سريرته حمدت سيرته؛ إذ لو قيل «حمد الناس سيرته» لاختلف إعراب الفاصلتين «سريرته وسيرته».
- ومنها المحافظة على الوزن في الكلام المنظوم كما في قول الأعشى:

علّقتها عرضا وعلّقت رجلا * غيري وعلّق أخرى غيرها الرجل**

فالأعشى هنا قد بنى الفعل «علّق» ثلاث مرات للمجهول، لأنه لوذكر الفاعل في كل مرة منها أو في بعضها لما استقام وزن البيت.

ب.2 – ومن الدواعي المعنوية لحذف الفاعل

- كون الفاعل معلوما للمخاطب حتى لا يحتاج إلى ذكره له نحو قوله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً{[النحل/126]، أي: خلق الله الإنسان ضعيفا.
- كون الفاعل مجهولا للمتكلم فلا يستطيع تعيينه للمخاطب، وليس في ذكره بوصف مفهوم من الفعل فائدة ، وذلك كما تقول: «سرق متاعي»، لأنك لا تعرف ذات السارق.
- رغبة المتكلم في الإبهام على السامع ، كقولك : تصدّق بألف دينار.

 ورغبة المتكلم في إظهار تعظيمه للفاعل: وذلك بصون اسمه عن أن يجري على لسانه، أو بصونه عن أن يقترن بالمفعول به في الذكر، كقولك: «خلق الخنزير»

 رغبة المتكلم في إظهار تحقير الفاعل : بصون لسانه عن أن يجري بذكره ، كمن يقول في وصف شخص يرضى الهوان والذل : « يهان ويذل فلا يغضب».

 خوف المتكلم من الفاعل أو خوفه عليه ، كمن يقول: قتل فلان ، فلا يذكر القاتل خوفا منه أو خوفا عليه.

 عدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل ، نحو قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الذي إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً{[الأنفال/2] قد بني الفعلان «ذكر وتلي» للمجهول لعدم تعلق الغرض بشخص الذاكر والتالي.

ونحو قول الفرزدق في مدح علي بن الحسين:

يغضي حياء ويغضي من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

فبني الفعل «يغضي» الثاني للمجهول ، لأن ذكر الفاعل هنا لا يحقق غرضا معينا في الكلام ، لأن معرفة ذات المغضي لا تعني السامع.

2- حذف المسند من دواعي حذف المسند سواء أكان خبرا أو فعلا إذا دل عليه دليل ما يلي

أ – دواعي حذف المسند الخبر

من هذه الدواعي الاحتراز من العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره ، وهذا من شأنه أن يكسب الأسلوب قوة ويضفي عليه جمالا.

ويكثر حذف الخبر لهذا الداعي أو الغرض إذا جاءت الجملة التي يرد فيها الحذف جوابا عن استفهام علم منه الخبر، كأن يسألك سائل : من أمير الشعراء ؟ فتجيب «أحمد شوقي» تريد: أحمد شوقي أمير الشعراء ، وكأن يسأل آخر: ماذ في يدك؟ فيجيب «كتاب» يريد: في يدي كتاب.

ويكثر حذف الخبر أيضا إذا كانت الجملة المحذوفة الخبر معطوفة على جملة اسمية أو معطوفا عليها جملة اسمية والمبتدآن مشتركان في الحكم نحو قوله تعالى: أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها{[الرعد/35]؛ أي: وظلها دائم، ونحو قول الفرزدق:

وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

يريد: والعجم تعرف من أنكرت أيضا.

ب – دواعي حذف المسند الفعل

وأهم دواعي حذف المسند الفعل الاحتراز عن العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره أيضا، ويكثر ذلك في جواب الاستفهام ، أي إذا جاءت الجملة المحذوفة المسند جوابا لسؤال محقق نحو قوله تعالى: }وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ{ [الزمر/38] أي: ليقولون خلقهن الله.

ج– حذف المفعول به

والمفعول به قد يحذف لدواع وأغراض بلاغية، شأنه في ذلك شأن المسند إليه والمسند. ومن أهم هذه الدواعي والأغراض:

ج.1- إفادة التعميم مع الاختصار نحو قوله تعالى:} وَاللَّهُ يَدْعُو إِلى دارِ السَّلامِ {[يونس/25] أي يدعو جميع عباده ، لأن حذف المعمول يؤذن بالعموم.

وهذا التعميم يمكن أن يستفاد من ذكر المفعول بصيغة العموم كقولنا «يدعو جميع عباده» ولكن ذلك من شأنه أن يفوت مزية الاختصار أو الإيجاز.

ج.2 – تنزيل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم ، وذلك لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول، لأن المراد في مثل هذه الحالة هو إفادة مجرد ثبوت الفعل للفاعل أو نفيه، نحو قوله تعالى: } قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ{[الزمر/9]؟، فالمعنى: هل يستوي من لهم علم ومن لا علم لهم؟ بغض النظر عن المعلوم أيا كان نوعه.

ونحو قول البحتري:

إذا أبعدت أبلت وإن قربت شفت* فهجرانها يبلي ولقيانها يشفي**

فهو لم يقل: أبلتني وشفتني لعدم تعلق غرض الشاعر بذكر المفعول، لأن ما يريد أن يعبر عنه هو أن إبعادها بلاء وداء وتقريبها شفاء.

ج.3- مجرد الاختصار أوالإيجاز: نحو قوله تعالى: }رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ {[الأعراف/143] أي: أرني ذاتك. ونحو: أصغيت إليه، أي أصغيت إليه أذني.

ج.4 – تحقيق البيان بعد الإبهام، وذلك لتقرير المعنى في النفس : ويكثر ذلك في فعل المشيئة أو الإرادة أو نحوهما إذا وقع فعل شرط فإن الجواب يدل عليه ويبينه، نحو قوله تعالى: }وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا{[البقرة/ 253] ، أي: ولو شاء الله ألا يقتتلوا أو عدم اقتتالهم

ما اقتتلوا. فإنه لما قيل: «ولو شاء» علم السامع أن هناك شيئا تعلقت المشيئة الإلهية به لكنه خفيّ مبهم، فلما جيء بجواب الشرط صار بينا واضحا يقع في النفس.

ويكثر حذف المفعول به أيضا في الفواصل نحو «يخشى» من قوله تعالى:}طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى{[طه/ 1-3]، ونحو «أعطى واتقى» من قوله تعالى كذلك: }فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى{[الليل/ 5-7]. فحذف المفعول في هذه الأمثلة وما أشبهها هو للمحافظة على وحدة الحرف الأخير من الفواصل والذي ينزل في النثر المسجوع منزلة حرف الروي في الكلام المنظوم.

المحاضرة رقم : 09 / الحذف والذكر (تابع)

II. الذكـر:

1- ذكر المسند إليه:

الأصل في المسند إليه أن يذكر في الكلام ، ولا ينبغي العدول عنه إلا إذا كان هناك قرينة في الكلام ترجح الحذف والاحتراز عن العبث ، وأهم الدواعي والأغراض التي ترجح ذكر المسند إليه على حذفه هي :

أ – ضعف التعويل والاعتماد على القرينة : أي يكون ذكر المسند إليه للاحتياط ، لأن فهم السامع من اللفظ أقرب من فهمه من القرينة، إما لخفائها أو لعدم الوثوق بنباهة السامع ، مثل أن يسأل جندي جنديا آخر عن توصيات قائدهما فيجيبه ؛ القائد قال كذا وكذا بذكر المسند إليه لأن ذكره أبلغ لضعف التعويل والاعتماد على القرينة وحدها لغفلة أو عدم تنبه السامع.

ب – القصد إلى زيادة التقرير والإيضاح : نحو قوله تعالى : }أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{[البقرة/5] ، ففي تكرير اسم الإشارة «أولئك» زيادة تقريروإيضاح لتميزهم بالشرف على غيرهم.

ج – بسط الكلام والإطناب فيه بذكر المسند إليه ولو دل عليه دليل، وذلك حيث يكون الإصغاء فيه من السامع مطلوبا للمتكلم لجلال قدره أو قربه من قلبه.

ومن أجل ذلك يطال الكلام مع الأحبّاء وذوي القدر وأولي العلم تلذذا بسماعهم وتشرفا بخطابهم وانتفاعا بكلامهم ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السّلام :}وَما تِلْكَ

بِيَمِينِكَ يا مُوسى؟ قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى{[طه/ 17-18] ، وكان يكفيه في غير هذا المقام أن يقول في الجواب «عصا» .

د – إظهار تعظيم المسند إليه بذكر اسمه نحو قولك: الله ربي ومحمد نبيي، والإسلام ديني في جواب من سألك : من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

هـ– إظهار تحقيره وإهانته: وذلك لما يحمله اسمه ويدل عليه من معنى الحقارة، كقولك: إبليس اللعين هو الذي أخرج آدم من الجنة. في جواب من سألك: من أخرج آدم من الجنة؟

و– التبرك والتيمن باسمه : كقولك: «محمد رسول الله خير الخلق.»

ز – الاستلذاذ بذكره وذلك في كل ما يهواه المرء ويتوق إليه ويعتز به ، ويكثر هذا في شعر العذريين ، كقول مجنون لبنى :

ألا ليت لبنى لم تكن لي خُلةً *** ولم تلقني لبنى ولم أدر ماهيا

2– ذكر المسند:

المسند كالمسند إليه الأصل فيه الذكر، ولهذا لا يعدل عنه إلا لقرينة في الكلام تبرر حذفه. ومن الأغراض التي ترجح ذكر المسند:

أ – الاحتياط لضعف القرينة وعدم التعويل عليها ومن أمثلة هذا النوع قولهم : عقل في السماء وحظ مع الجوزاء ، فلو حذف المسند «مع الجوزاء» لما دل عليه مسند الجملة الأخرى السابقة وهو «في السماء» دلالة قاطعة، إذ يحتمل أن يكون الحظ عاثرا كما هو شأن الكثيرين من أرباب المواهب والعقول.

ب – التعريض بغباوة السامع : وذلك مثل قولنا: «سيدنا محمد نبينا»، في جواب من قال: من نبيكم؟ تعريضا بالسامع وأنه لو كان ذكيا لم يسأل عن «نبينا» وهو المسند هنا، لأنه أظهر من أن يتوهم خفاؤه. ومن أجل ذلك يجاب بذكر أجزاء الجملة إعلاما بأن مثل هذا السائل غبي لا يكفي معه إلا التنصيص ، لعدم فهمه بالقرائن الواضحة.

ج – إفادة أن المسند فعل أو اسم : فإن كان فعلا فهو يدل بأصل وضعه على التجدد والحدوث مقيدا بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار، وإن كان اسما فهو يفيد بأصل وضعه كذلك الثبوت من غير دلالة على الزمان.

المحاضرة رقم : 10/ التقديم والتأخير

I. تقديم المسند والمسند إليه:

لم يغب عن الأوائل أهمية أمر التقديم والتأخير ؛ فهاهو عبدالقاهر يجلِّي هذه الأهمية بأنصع عبارة جاعلا التقديم والتأخير من أهم الوسائل التعبيرية التي تعود إليها مزية استحسان قول أو تقديمه لأنه « باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ، ولطُف عندك أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان.»

ليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلام دفعة واحدة ، من أجل ذلك كان لا بد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر، وهذا التقديم والتأخير لا يرد اعتباطا في نظم الكلام وتأليفه ، وإنما يكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيها، وليس هناك مبرر لاختصاص كل من المسند إليه والمسند بدواع خاصة عند تقديم أحدهما أو تأخيره عن الآخر، لأنه إذا تقدم أحد ركني الجملة تأخر الآخر، فهما متلازمان ، وأهم الدواعي والأغراض البلاغية التي توجب التقديم والتأخير في الكلام هي:

– 1التشويق إلى المتأخر إذا كان المتقدم مشعرا بغرابة ؛ نحو قول الشاعر محمد بن وهيب يمدح المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها * شمس الضحا وأبو إسحق والقمر**

فهنا قدم المسند إليه وهو «ثلاثة» واتصف بصفة غريبة تشوق النفس إلى الخبر المتأخر، وهي «تشرق الدنيا ببهجتها» ، فإشراق الدنيا أمر يشوق النفس إلى أن تعرف هذه الأشياء الثلاثة التي جعلت الدنيا بحسنها تتألق وتضيء ، فإذا عرفت النفس ذلك تمكن الخبر المتأخر فيها واستقر.

– 2تعجيل المسرة أو المساءة للتفاؤل أو التطير نحو: المرتبة الأولى في الدفعة كانت من نصيبك ، ونحو: ببراءة المتهم حكم القاضي ، والتعجيل بالمساءة نحو: الفشل مُني به الكسول.

– 3كون المتقدم محط الإنكار والتعجب: نحو قوله تعالى:{ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ} [مريم/46] ؟ فإنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله أَراغِبٌ أَنْتَ ولم يقل «أأنت راغب» وذلك لأهمية المتقدم وشدة العناية به ، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها.

ومن أمثلته شعرا قول أبي فراس الحمداني:

أمثلي تقبل الأقوال فيه؟ ***ومثلك يستمر عليه كذب؟

– 4النص على عموم السلب أو سلب العموم : فالنص على عموم السلب يعني شمول النفي لكل فرد من أفراد المسند إليه ، ويكون عادة بتقديم أداة من أدوات العموم على أداة نفي

كقول المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن**

فالمعنى هنا: أن الإنسان لا يدرك كل أمانيه ، وإنما هو يدرك بعضها ويفوته بعضها الآخر.

– 5تقوية الحكم وتقريره: وذلك كقولك عن شخص كريم: «هو يعطي الجزيل»، فأنت لا تريد أن غيره لا يعطي الجزيل، ولا أن تعرض بإنسان آخر يعطي القليل ، ولكن تريد أن تقرر في ذهن السامع وتحقق أنه يفعل إعطاء الجزيل ، فتقديم المسند إليه «هو» وتكريره في الضمير المستتر في «يعطي» أدى إلى تقوية الحكم وتقريره.

–6 التخصيص: وهذا يعني أن المسند إليه قد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي بشرط أن يكون مسبوقا بحرف نفي نحو: ما أنا قلت هذا، أي: لم أقله ولكنه مقول غيري. فأنت في هذا المثال تنفي وقوع المقول منك، ولكنك لا تنفي وقوعه من غيرك. ولهذا لا يصح: ما أنا قلت هذا ولا غيري. فتقديم المسند إليه «أنا» أفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك.

– 7التنبيه على أن المتقدم خبر لا نعت : وذلك خاص بتقديم الخبر المسند على المبتدأ المسند إليه، نحو قوله تعالى: }وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ{[الأعراف/24]، فالشاهد هنا هو في قوله: «ولكم مستقر» فلو قال «ومستقر لكم» لتوهم ابتداء أن «لكم» نعت وأن خبر المبتدأ سيذكر فيما بعد، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر، ولذلك تعين تقديم المسند للتنبيه على أنه خبر لا نعت.

II. **تقديم متعلقات الفعل عليه :**

1 – فمن تقديم المفعول على الفعل قولك : «محمدا أكرمت» والأصل «أكرمت محمدا»، فإن في قولك بالتقديم «محمدا أكرمت» تخصيصا لمحمد بالكرم دون غيره، وذلك بخلاف قولك «أكرمت محمدا»، لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاع الكرم على أي مفعول شئت،

بأن تقول: أكرمت خالدا أو عليا أو غيرهما. فتقديم المفعول على الفعل هنا قصد به اختصاصه به، أي اختصاص محمد دون غيره بالإكرام.

2 – ومن تقديم الجار والمجرور على الفعل قوله تعالى: }وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ{[آل عمران/109]، فإن تقديم الجار والمجرور دال على أن مرجع الأمور ليس إلا لله وحده، على حين لو وردت الآية من غير تقديم وقيل: «ترجع الأمور إلى الله» لاحتمل إيقاع مرجع الأمور إلى غير الله وهذا محال.

3 – ومن تقديم الحال على الفعل قولك : «مبكرا خرجت إلى عملي» تخصيصا لحالة التبكير بالخروج دون غيرها من الحالات ، وذلك بخلاف قولك: «خرجت إلى عملي مبكرا» لأنك في تقديمك الفعل تكون بالخيار في إيقاعه مقيدا بأي حالة شئت ، بأن تقول: خرجت إلى عملي متأخرا أو مسرعا أو مسرورا أو غير ذلك ، وكذلك يجري الأمر في بقية متعلقات الفعل.

وعلماء البلاغة ومنهم الزمخشري يرون أن تقديم متعلقات الفعل عليه على النحو السابق إنما هو للاختصاص. ولكن ابن الأثير يرى أن تقديم متعلقات الفعل عليه يكون لواحد من غرضين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام ، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم وإذا أخر المقدم زال ذلك الحسن ، وهذا الوجه عنده أبلغ وأوكد من الاختصاص ، فمن «الاختصاص» قوله تعالى }بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ {[الزمر/66]. فإنه إنما قيل:«بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ» ولم يقل: «بل اعبد الله» لأن المفعول وهو لفظ الجلالة «الله» إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ، من الثاني وهو التقديم لمراعاة نظم الكلام قوله

تعالى:} خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ {[الحاقة/30-31]، فإن تقديم الجحيم على التصلية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص ، وإنما هو مراعاة لانتظام الفواصل ، ولا مراء في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن مما لو قيل: «خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم» ، ولهذا النوع من التقديم نظائر كثيرة في القرآن.

المحاضرة رقم : 11 / القصر

القصر لغة: الحبس، قال الله تعالى: }حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ{[الرحمن/72] ، أي قصرن وحبسن على أزواجهن فلا يطمحن لغيرهم ، واصطلاحًا: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. والشيء الأول : هو المقصور، والشيء الثاني : هو المقصور عليه.

ولأسلوب القصر طرفان وله طرقه المختلفة التي يؤدى بها، كما له أقسامه باعتبار الحقيقة والإضافة ، وباعتبار حال المخاطب ، وباعتبار الطرفين.

1 – طرق القصر : للقصر طرُق كثيرة ، وأشهرها في الاستعمال أربعة هي:

أ– يكون القصر «بالنفي والاستثناء» وفي هذه الحالة يكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء نحو: «ما شوقي إلا شاعر» أو «ما شاعر إلا شوقي».

ب – يكون القصر «بإنما» ويكون المقصور عليه معها مؤخرا وجوبا نحو قوله تعالى : }إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ{[فاطر/28]

ج – يكون القصر بالعطف بـ «لا» و«بل» و«لكن» فإن كان العطف ب «لا» كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها ، وإن كان العطف ب «لكن» و «بل» كان المقصور عليه ما بعدهما.

نحو: الأرض متحركة لا ثابتة ، ماالأرض متحركة بل ثابتة ، ماالأرض متحركة لكن ثابتة

د– يكون القصر «بتقديم ما حقه التأخير» وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم نحو: }إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {[الفاتحة/5] أي نخصك بالعبادة والاستعانة.

2– أقسام القصر يقسم البلاغيون القصر إلى ثلاثة أقسام:

أ- **القصر باعتبار الحقيقة والواقع:** وينقسم إلى :

أ.1- قصر حقيقي : وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألا يتعداه إلى غيره أصلًا ، نحو: لا إله إلا الله.

أ.2- وقصر إضافي : وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر مُعَين ، لا لجميع ما عداه ، نحو: ما خليل إلا مسافر، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره ، كعلي مثلًا ، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه ؛ إذ الواقع يشهد ببطلانه.

ب - **القصر باعتبار الطرفين** : ينقسم القصر باعتبار طرفيه «المقصور والمقصور عليه» سواء أكان القصر حقيقيًّا أم إضافيًّا إلى نوعين:

ب.1- قصر صفة على موصوف : هو أن تُحبس الصفة على موصوفها، وتُخْتَص به، فلا يتَّصف بها غيره ، وقد يتصف هذا الموصوف بغيرها من الصفات.

مثاله من الحقيقي: «لم يبن الأهرام إلا المصريون» فالقصر هنا قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا، قصرا يراد به أن صفة بناء الأهرام مقصورة على المصريين لم تتجاوزهم إلى سواهم من الناس.

ومثاله من الإضافي «لا يتحمل الشدائد إلا الأقوياء» ففي هذا القصر الإضافي قصرت صفة تحمل الشدائد على الأقوياء بمعنى أنها لا تتجاوز الأقوياء إلى غيرهم ، وإن كان الموصوف يتجاوزها إلى غيرها من الصفات.

ب.2- قصر موصوف على صفة ، هو أن يُحبَس الموصوف على الصفة ويختص بها دون غيرها، وقد يُشاركه غيره فيها.

وهذا النوع من القصر في الحقيقي لا يكاد يوجد ، وذلك لأن أي موصوف له من الصفات ما يتعذر الإحاطة بها.

ومثاله من الإضافي نحو: «ما المتنبي إلا شاعر»، فقد قصر المتنبي على صفة الشاعرية لا يتجاوزها إلى غيرها من الصفات كالخطابة والكتابة ، وإن كانت صفة «الشاعرية» تتجاوز المتنبي إلى غيره من الناس.

ج- **القصر باعتبار حال المخاطب** : ينقسم القصر الإضافي بنوعيه السابقين (قصر موصوف على صفة أو العكس)على حسب حال المخاطَب إلى ثلاثة أقسام : قصر إفراد ، وقصر قلب ، وقصر تعيين.

ج.1- قصر إفراد : إذا اعتقد المخاطب الشركة، نحو: «الكريم محمد لا علي» وكان المخاطب يعتقد اشتراك محمد وعلي في صفة الكرم كان القصر «قصر إفراد».

وإذا كان المخاطب مترددا لا يدري أيهما الكريم كان القصر «قصر تعيين».

ج.2- قصر قلب : إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تثبته كاعتقاده أن الكريم علي لا محمد كان القصر «قصر قلب».

ج.3- قصر تعيين : إذا كان المخاطب مترددا لا يدري أيهما الكريم كان القصر «قصرتعيين».

المحاضرة رقم : 12 / الفصل والوصل

إن أسلوب الفصل والوصل في التراكيب العربية من المباحث البلاغية الهامة التي تعين على فهم دلالاتها ، ومعرفة كيفية انتظام كلماتها وارتباط جملها ، والكشف عن العلاقات بينها ، مما جعل هذا المبحث يعد أنموذجا من اهتمام القدماء بدراسة الأساليب ، حتى جعل بعضهم*[20] جماع البلاغة في » معرفة الفصل من الوصل «[21] وإنما كان الفصل والوصل بهذه المكانة لأهميته في تحقيق المعنى وإظهاره من الكلام حتى يدركه المتلقي في جمال وجلاء ، فيتحقق بذلك كمال الفائدة بإصابة المعنى وملاءمة المقام ، وهذه هي البلاغة الحقة.

1- تعريف الوصل والفصل :

الوصل عطف جملة على أخرى بالواو دون سائر حروف العطف الأخرى ، والفصل ترك هذا العطف بين الجملتين ، والسبب في الاقتصار على الواو لأنها هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها ويتطلب فهم العطف بها دقة في الإدراك ، وسبب ذلك أنها لا تدل إلا على مطلق الجمع والاشتراك ، أما غيرها من أحرف العطف فتفيد مع الاشتراك معاني زائدة كالترتيب مع التعقيب في الفاء، والترتيب مع التراخي في «ثم» وهلم جرا ، وهذا رأي الجرجاني بينما ذهب بعض البلاغيين إلى أن الوصل يكون بالواو وبغيرها من حروف العطف ؛ يقول عبد المتعال الصعيدي : » وقد ذهب السّكّاكي إلى أن كلا من الوصل والفصل يأتي في عطف الجمل

---

*[20] سماه الجاحظ (الفارسي) وهو لا يقصد أبا علي الفارسي (377هـ) كما يتوهم ؛ بل يقصد أحدا منسوبا إلى الفرس ، لأن أبا علي جاء بعد الجاحظ (255هـ)

[21] – الجاحظ ، أبوعثمان عمرو بن بحر – البيان والتبيين – ج :1 – ص : 88

والمفردات ، وفي العطف بالواو وغيره من حروف العطف ، وأن المعول عليه في ذلك هو الجهة الجامعة ، فمتى وجدتْ صح العطف في الجمل وغيرها ... وقد انتصر للسّكّاكي في هذا بعض مؤلفي عصرنا والحق ما جرى عليه عبدالقاهر وغيره.« [22]

ولكل من الفصل والوصل بالواو في الكلام مواضع خاصة تدعو إليها الحاجة ويقتضيها المقام نعرض لبعضها بإيجاز.

-2**مواضع الفصل:** يجب الفصل في خمسة مواضع :

أ – أن يكون بين الجملتين اتحاد تام ، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيدا للأولى ، أو بيانا لها، أو بدلا منها ، ويقال حينئذ إن بين الجملتين «كمال الاتصال»

- مثال الفصل للتوكيد : كقوله تعالى :} فَمَهِلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا{] الطارق17/]
- مثال الفصل للبيان : قوله تعالى : }فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يبَلَى{ [طه/ 120] ، فجملة (قال يا آدمُ): بيانٌ لما وسوسَ به الشيطانُ إليه.
- مثال الفصل للبدل : قوله تعالى : وَاتقُوا الذي أَمَدكُم بِماَ تَعْلَمُونَ ، أَمدكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ]الشعراء/ 132-133]

ب – والموضع الثاني من المواضع التي يجب فيها الفصل بين الجمل هو: أن يكون بين الجملتين «تباين تام»، وذلك بأن تختلفا خبرا وإنشاء، أو بألا تكون بينهما مناسبة ما، ويقال حينئذ إن بين الجملتين «كمال الانقطاع»

- مثال الاختلاف خبرا وإنشاء : قول الشاعر حَوْط بن رئاب الأسدي:

[22] – الصعيدي ، عبدالمتعال – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – مكتبة الآداب ، القاهرة – ط: 1 / 2009- ص : 278

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله *** لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

- مثال عدم وجود المناسبة : قول الشاعر(غير معروف):

وإنما المرء بأصغريه *** كل امرئ رهن بما لديه

ج – والموضع الثالث من المواضع التي يجب فيها الفصل بين الجملتين هو أن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال يفهم من الأولى ، ويقال حينئذ إن بين الجملتين «شبه كمال الاتصال» نحو قول الشاعر (غير معروف) :

زعَمَ العَواذلُ أنني في غَمْرَةٍ*** صَدَقوا ولكن غمَرتي لا تَنْجَلي

د – الموضع الرابع: «شبه كمال الانقطاع» وهو أن تُسبق جملة بجملتين يصح عطفها على الأولى لوجود المناسبة ، ولكن في عطفها على الثانية فساد في المعنى ، فيُترك العطف بالمرة ؛ دفعًا لتوهم أنه معطوف على الثانية ، نحو قول الشاعر(غير معروف):

وتظن سلمى أنني أبغي بها *** بدلًا أراها في الضلال تهيم

فجملة «أراها» يصح عطفها على جملة «تظن» ، لكن يمنع من هذا توهم العطف على جملة «أبغي بها» فتكون الجملة الثالثة من مظنونات سلمى ، مع أنه غير المقصود ؛ ولهذا امتنع العطف بتاتًا ووجب أيضًا الفصل.

هـ – الموضع الخامس: «التوسط بين الكمالين مع قيام المانع» وهو كون الجملتين متناسبتين وبينهما رابطة قوية ، لكن يمنع من العطف مانع ، وهو عدم التشريك في الحكم ، كقوله تعالى: }وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ {[البقرة / 14]

3 – مواضع الوصل : ويجب الوصل بين الجملتين في ثلاثة مواضع:

أ – إذا اتفقت الجملتان في الخبرية والإنشائية وكانت بينهما مناسبة تامة في المعنى ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما.

فمثال الخبريتين قوله تعالى:}إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{ [الانفطار/13-14]

ومثال الإنشائيتين قوله تعالى: فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ.

ب– دفع توهُّم غير المراد ؛ وذلك إذا اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية ، وكان الفصل يُوهِم خلاف المقصود ، كما تقول مجيبًا لشخص بالنفي: «لا وشفاه الله» لمن يسألك : هل برئ عليٌّ من المرض؟ فترك الواو يُوهم السامع الدعاء عليه ، وهو خلاف المقصود.

ج– إذا كان «للجملة الأولى» محل من الإعراب، وقُصِدَ تشريك «الجملة الثانية» لها في الإعراب حيث لا مانع، نحو: «عليٌّ يقول ويفعل»

محاضرة رقم : 13 / الإيجاز والإطناب والمساواة

كلُّ ما يجُول في الصدر من المعاني ، ويَخطُر بالبال لا يعدُو التعبير عنه بطريق من طرق ثلاث:

أولاً – إذا جاء التعبير على قدر المعنى ، بحيث يكون اللفظ مساوياً لأصل ذلك المعنى ، فهذا هو «المساواة» وهي الأصل الذي يكون أكثر الكلام على صورته .

ثانياً – إذا نقص التعبير على قدر المعنى الكثير، فذلك هو «الايجاز»

ثالثا– إذا زاد التعبير على قدر المعنى لفائدة ، فذاك هو «الإطناب» فإن لم تكن الزيادة لفائدة فهي حشو أوتطويل.

1– **الإيجاز**: وهو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، وافية بالغرض المقصود ، مع الإبانة والإفصاح كقوله تعالى: }خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين { [الأعراف/199] ، وينقسم الإيجاز إلى قسمين ، إيجاز قصرٍ وإيجاز حذف :

أ – إيجاز القصر: يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف ، كقوله تعالى:

}وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ {[البقرة/179] ، فان معناه كثير، ولفظه يسير.

ب– إيجاز الحذف : يكون بحذف شيء من العبارة لا يخلّ بالفهم ، عند وجود ما يدل على المحذوف ، من قرينة لفظية أو معنوية وذلك المحذوف إما أن يكون:

– حرفا من حروف المباني : كقوله تعالى (ولم أكُ بغياً) – أصله: ولم اكن.

– حرفا من حروف المعاني : قول عاصم المنفري:

رأيت الخمر جامدة وفيها * خصال تفسد الرجل الحليما**

فلا والله اشربها حياتي * ولا أسقى بها أبدا نديما**

– كلمة مفردة : كقوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) أي: في سبيل الله

– جملة واحدة : كقوله تعالى : }كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ{ [البقرة/213] أي فاختلُفوا: فبعث.

– جُمَلا – كقوله تعالى }فأرسلون يوسف أيها الصديقُ {[يوسف/46]أي فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه ، وقال له: يوسف...

ودواعي الإيجاز كثيرة : منها الاختصار، وتسهيل الحفظ وتقريب الفهم ، وضيق المقام ، وإخفاء الأمر على غير السَّامع ، والضجر والسآمة ، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير ... الخ.

ويُستحسن «الإيجاز» في الاستعطاف ، وشكوى الحال ، والاعتذارات ، والتعزية ، والعتاب ، والوعد والوعيد والتوبيخ ، ورسائل الملوك...

2– الإطناب

أ – تعريف الإطناب وصوره

الإطناب : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، أوهو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدة تقويته وتوكيده – نحو قوله تعالى : }قال رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا{ [مريم/4] أي: كبرتُ فاذا لم تكن في الزيادة فائدة ، سمي «تطويلا» نحو قول عدي العبادي في جذيمةَ الأبرش :

وقدَّدت الأديم لراهشيه * وألفى قولها كذباً وميناَ**

وإن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة سمي «حشواً» كقول زهير بن أبي سلمى:

وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله * ولكنني عن علم ما في غد عمي**

ب- دواعي الاطناب كثيرة : منها تثبيت المعنى ، وتوضيح المراد، والتوكيد ، ودفع الايهام ، ونورد في مايلي بعض صور الإطناب :

ب. -1الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يجمل المعنى ويبهم ثم يفصّل ويبين، فيبدو في صورتين مختلفتين ، وعندئذ يقع في النفس أطيب موقع ، ويتمكن لديها أفضل تمكّن؛ من ذلك قول الله تعالى: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ{ [الصف/ 10-11] فقد أجملت التجارة التي تنجي من العذاب ثم فُصلت بعد ذلك وبُينت.

ب. -2ذكر الخاص بعد العام : والغرض البلاغي من هذا النوع من الإطناب هو التنبيه على فضل الخاص وزيادة التنويه بشأنه ، حتى كأنه ليس من جنس العام.

ومن أمثلته قوله تعالى: }حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى {[البقرة/238]، فقد خص الله الصَّلاةِ الْوُسْطى أي صلاة العصر بالذكر مع أنها داخلة في عموم الصلوات تنبيها على فضلها الخاص حتى كأنها لفضلها جنس آخر مغاير لما قبلها.

ب. -3ذكر العام بعد الخاص: والغرض من ذلك هو إفادة العموم مع العناية بشأن الخاص، نحو قوله تعالى: }رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِناتِ{[نوح/28] فلفظ «لي ولوالدي» زائد في الآية لدخول معناه في عموم المؤمنين والمؤمنات.

ب. -4التكرير لغرض : والمراد به تكرير المعاني والألفاظ ، وحدّه هو دلالة اللفظ على المعنى مردّدا ، ودواعي الإطناب بالتكرير كثيرة منها:

- طول الفصل كقول الشاعر أبي فراس الحمداني:

وإن امرأ دامت مواثيق عهده * على مثل هذا إنه لكريم**

- تأكيد الإنذار: نحو قوله تعالى: }كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{ [التكاثر/3-4] فقوله: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ زيادة في تأكيد الإنذار.

- زيادة الترغيب في العفو: نحو قوله تعالى : }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ { [التغابن/15]

ب. -5الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام بلفظ يتوسط أجزاء جملة أو جملة تتوسط جملتين متصلين في المعنى ويكون لا محل لها من الإعراب وهذا لفائدة غير دفع الإبهام ، ومن أغراض هذا الاعتراض :

- التنزيه: وذلك كقوله تعالى: }وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ- سُبْحانَهُ- وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ { [التغابن/15]. فجملة «سبحانه» في الآية الكريمة معترضة في أثناء الكلام لغرض بلاغي هو المسارعة إلى تنزيه المولى جل شأنه وتقديسه عما ينسبون إليه.

- الدعاء: ومن أمثلته قول عوف بن مُحَلِّم الشيباني يشكو كبره وضعفه:

إن الثمانين – وبلّغتها- * قد أحوجت سمعي إلى ترجمان**

فقوله «وبلغتها» جملة معترضة بين اسم إن وخبرها قصد الشاعر بها الدعاء لمن يخاطبه استدرارا لعطفه عليه.

– التحسر: ومنه قول إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه:

وإني «وإن قدّمت قبلي» لعالم * بأني «وإن أخّرت» منك قريب**

ففي البيت هنا إطناب بالاعتراض في كل من شطريه، هو في الشطر الأول «وإن قدمت قبلي»، وهو في الثاني «وإن أخرت»، والغرض البلاغي الذي قصد إليه الشاعر من وراء هذين الاعتراضين هو إظهار الأسى والتحسر على أن الموت سبق إلى ولده.

ب. –6التذييل: وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتوكيد وهو قسمان :

* تذييل جار مجرى المثل، وذلك إن استقل معناه واستغنى عما قبله ، نحو قوله تعالى: { وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً} [الإسراء/81]، فجملة إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً تعقيب على الجملة السابقة تشتمل على معناها توكيدا لها، وهي في الوقت ذاته مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها، ولهذا يقال إنها إطناب بالتذييل جار مجرى المثل.

* تذييل غير جار مجرى المثل: وهو الكلام الذي لا يستقل بمعناه، ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله، كقوله تعالى:{ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ/17]؟ فقوله تعالى: وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ؟ تذييل لقوله: ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وقد جاء هذا التذييل توكيدا لما قبله لاشتماله على معناه ، ولكنه هو غير مستقل بمعناه ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله.

ب. –7الاحتراس: وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم ، فيفطن لذلك ويأتي بما يدفع به هذا التوهم ، كقول طرفة بن العبد:

فسقى ديارك غير مفسدها *** صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله: «غير مفسدها» احتراس وتحرز من المقابل وهو محو معالمها.

المحاضرة رقم : 14 / علم البيان

البيان لغة : الكشف والإيضاح ، يقال فلان أبين من فلان ، أي: أوضح منه كلاما.

واصطلاحا : «علم يستطاع بمعرفته إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، وتراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة ، مع مطابقة كل منها مقتضى الحال.»[23] ، ويبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية.

1 – **التشبيه:** وهو تعريفا إلحاق أمر بأمر في وصف بأداة لغرض ، والأمر الأول يسمى المشبَّه ، والثاني المشبَّه به ، والوصف وجه الشبه ، والأداة الكاف ، أو نحوها.

نحو: العلم كالنور في الهداية ؛ فالعلم مشبَّه ، والنور مشبَّه به ، والهداية وجه الشبه ، والكاف أداة التشبيه وتسمى هذه الأربعة أركان التشبيه.

أ – أركان التشبيه:

أ**.1**– المشبَّه ، والمشبَّه به (ويسميان : طرفي التشبيه) وقد يكونان:

 حسيّين: والمراد بالحسيّ ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ؛ كقول الشاعر(غير معروف) :

أنت نجم في رفعة وضياء * تجتليك العيون شرقا وغربا**

 عقليين: والمراد بالطرفين العقليين أنهما لا يدركان بالحواس بل بالعقل ، وذلك كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت ، فقد شبه هنا معقول بمعقول ، أي أن كلا منهما لا يدرك إلا بالعقل.

[23] – المراغي ، أحمد مصطفى – علوم البلاغة – المكتبة العصرية ، بيروت – ط : 1 / 2005 – ص 174

 مختلفين: وذلك بأن يكون أحدهما عقليا والآخر حسيّا ، كتشبيه المنيّة بالسبع ، والمعقول هو المشبه ، والمحسوس هو المشبه به ، وكتشبيه العطر بالخلق الكريم ، فالمشبه وهو العطر محسوس بالشم ، والمشبه به وهو الخلق عقليّ.

أ.2- أداة التشبيه

وأداة التشبيه كل لفظ يدل على المماثلة والاشتراك ، وهي حرفان وأسماء وأفعال، وكلها تفيد قرب المشبه من المشبه به في صفته ؛ والحرفان هما:

-الكاف: وهي الأصل لبساطتها ، والأصل فيها أن يليها المشبه به ، كقول الشاعر:

أنا كالماء- إن رضيت- صفاء* وإذا ما سخطت كنت لهيبا**

- كأن : ويليها المشبه ، كقول الشاعر كُشَاجِم:

كأن الثريا راحة تَشْبُرُ الدجى * لتنظر طال الليل أم قد تعرَّضا**

وتفيد (كأن) التشبيه إذا كان خبرها جامدًا ، والشك إذا كان خبرها مشتقًّا ، نحو: كأنك فاهم

-مثل : وما في معناها مثل لفظة «نحو» ، وما يشتق من لفظة (مثل) و(شبه) ، نحو مماثل ومشابه وما رادفهما ، وأما أدوات التشبيه الفعلية فنحو: يشبه ويشابه ويماثل ويضارع ويحاكي ويضاهي ، والبلاغيون يقسمون التشبيه باعتبار الأداة إلى مرسل ومؤكد: فالتشبيه المرسل: هو ما ذكرت فيه أداة التشبيه، نحو قول الشاعر الميداني:

العمر مثل الضيف أو * كالطيف ليس له إقامة**

وإذاحذفت أداة التشبيه ووجهه سمي تشبيهًا بليغًا نحو﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[النبأ/10]أي:كاللباس في الستر.

أ.3- وجه الشبه :

وجه الشبه هو المعنى الذي يشترك فيه طرفا التشبيه تحقيقا أو تخييلا ، والمراد بالتحقيق هنا أن يتقرر المعنى المشترك في كل من الطرفين على وجه التحقيق ، وذلك نحو تشبيه الشعر بالليل ووجه الشبه هنا هو السواد وهو مأخوذ من صفة موجودة في كل واحد من الطرفين وجودا حقيقيا، وإن كان من فرق في الصفة فهو في درجة قوتها وضعفها.

والمراد بالتخييل أن لا يمكن وجوده في المشبه به إلا على سبيل التأويل والتخييل كقول الشاعر أبي طالب الرَّقِّي:

ولقد ذكرتك والظلام كأنه* يوم النوى وفؤاد من لم يعشق**

فإنه لما كانت أيام المكاره توصف بالسواد توسعا، فيقال اسودّ النهار في عيني وأظلمت الدنيا عليّ ، ولما كان المحب يفترض القسوة فيمن لم يعشق ، وكان القلب القاسي يوصف بالسواد توسعا، تخيّل الشاعر العاشق يوم النوى وفؤاد من لم يعشق شيئين لهما سواد ، وجعلهما أعرف به ، وأشهر من الظلام فشبهه بهما.

ب – أقسام التشبيه:

ينقسم التشبيه باعتبار الأداة إلى مؤكد ومرسل ، باعتبار وجه الشبه إلى تمثيل وغير تمثيل وإلى مفصل ومجمل :

ب. -1التشبيه المؤكد والتشبيه المرسل: فالمؤكد هو ماحذفت أداته نحو: هو بحر في الجود ، ومرسل وهو ما ليس كذلك ، نحو: هو كالبحر كرمًا ، وقول المتنبي :

وإذا أشار محدثا فكأنه* قرد يقهقه أو عجوز تلطم**

ومن المؤكد ما أضيف فيه المشبه به إلى المشبه ، نحو قول ابن خفاجة الأندلسي :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى * ذهَبُ الأصيل على لُجَين الماء**

الشاهد فيه : ذهب الأصيل ؛ لأن الأصيل يكون أصفر كالذهب ، وفيه شاهد آخر، وهو قوله : على لجين الماء والمعنى على ماء كاللجين ، وعلى أصيل كالذهب ، فالتشبيه هنا مؤكد ؛ لأنه أضيف فيه المشبه به إلى المشبه.

ب.2- تشبيه التمثيل وغير التمثيل : فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه منتزعًا من متعدد ؛ كتشبيه الثريا بعنقود العنب المنور، وغير التمثيل ما ليس كذلك ؛ كتشبيه النجم بالدرهم

فمن الأول قول أبي تمام في مغنية تغني بالفارسية:

ولم أفهم معانيها ولكن * ورت كبدي فلم أجهل شجاها**

فبتّ كأنني أعمى معنّى * بحبّ الغانيات وما يراها**

ومن الثاني قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله* عليّ بأنواع الهموم ليبتلي**

ب.3- التشبيه المجمل والتشبيه المفصل :

فالتشبيه المفصل هو ما ذكر فيه وجه الشبه نحو قول ابن الرومي:

يا شبيه البدر في الحس * ن وفي بعد المنال**

جد فقد تنفجر الصخ * رة بالمـــــاء الزلال**

والتشبيه المجمل هو ما حذف منه وجه الشبه ، نحو قول النابغة الذبياني:

فإنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب**

ملاحظة : هناك تشبيه يسمى التشبيه المقلوب هو جعل المشبه مشبها به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر، أي جعل الأصل فرعا والفرع أصلا و منه قول البحتري :

في طلعة البدر شيء من محاسنها * وللقضيب نصيب من تثنيها**

وهناك تشبيه آخر يدعى التشبيه الضمني لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان في التركيب ، وهذا الضرب من التشبيه يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن ؛ كقول أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم* وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر**

وكقول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى * السيل حرب للمكان العالي**

وكقول ابن الرومي :

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت * وقع السهام ونزعهنّ أليم**

ج – أغراض التشبيه :

قد يلجأ الكاتب أو الشاعر إلى استعمال أسلوب التشبيه لشعوره بأنه أكثر من غيره في إصابة الغرض ووضوح الدلالة على المعنى ، وأغراض التشبيه منوعة منها :

ج.– 1 بيان إمكان وجود المشبّه : وذلك حين يسند إلى المشبه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له كقول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم * فإن المسك بعض دم الغزال**

فإنه لما ادعى أن الممدوح مباينٌ لأصله ؛ لخصائص جعلته حقيقة منفردة احتج على إمكان دعواه بتشبيهه بالمسك ، الذي أصله دم الغزال.

ج.–2 بيان حال المشبه : وذلك حينما يكون المشبه مجهول الصفة غير معروفها قبل التشبيه ، فيفيده التشبيه الوصف ، ومن أمثلة ذلك قول النابغة الذبياني:

فإنك شمس والملوك كواكب ***إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب

ج. –3بيان مقدار حال المشبه : أي مقدار حاله في القوة والضعف والزيادة والنقصان ، وذلك إذا كان المشبه معروف الصفة قبل التشبيه معرفة إجمالية ، ثم يأتي التشبيه لبيان مقدار هذه الصفة بدقة ؛ نحو قول عنترة :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة * سودا كخافية الغراب الأسْحَم**

شبه النوق السود بخافية الغراب (أي جناحه) ؛ بيانًا لمقدار سوادها.

ج. –4تقرير حال المشبه : أي تثبيت حاله في نفس السامع وتقوية شأنه لديه ، كما إذا كان ما أسند إلى المشبه يحتاج إلى التأكيد والإيضاح بالمثال ؛ كقول الشاعر(وينسب لعلي كرم الله وجهه) :

إن القلوب إذا تنافر ودّها * مثل الزجاجة كسرها لا يُجْبَر**

ج. –5تزيين المشبّه : ويقصد به تحسين المشبّه والترغيب فيه عن طريق تشبيهه بشيء حسن الصورة أو المعنى، ومن أمثلة ذلك قول أبي الحسن الأنباري في رثاء الوزير ابن بقية :

مددت يديك نحوهم احتفاء*** كمدّهما إليهم بالهبات

ج. -6تقبيح المشبه : وذلك إذا كان المشبّه قبيحا قبحا حقيقيا أو اعتباريا فيؤتى له بمشبّه به أقبح منه يولّد في النفس صورة قبيحة عن المشبّه تدعو إلى التنفير عنه ، ومن أمثلة ذلك قول أعرابي في ذم امرأته :

وتفتح- لا كانت- فما لو رأيته * توهمته بابا من النار يفتح**

المحاضرة رقم : 15 / الحقيقة والمجاز

تمهيد

حظي موضوع الحقيقة والمجاز بعناية بالغة من لدن البلغاء والخطباء والنقاد والفلاسفة والمتكلمين وكل مشتغل بالخطاب وتحليله ، منذ كتابات أرسطو إلى يوم الناس هذا ، فالمجاز لا يخص لغة بعينها دون أخرى ؛ بل هو ظاهرة مشاعة بين جميع لغات العالم ، وهو موضوع صعب شائك اعترف بوعورة مسالكه كل من تقحم دروبه وفجاجه ، لتشابك مادته واشتراكها بين علوم كثيرة كالبلاغة والتفسير وأصول الفقه والعقائد والفلسفة وعلم الكلام وعلم النفس وعلم الاجتماع ، لأن سائر هذه العلوم تعنى بأمور اللغة وتفسير ظواهرها، فالتصوير المجازي في البيان الإنساني أمر ملموس عند كل الأمم من عرب وعجم نصادفه في آدابها وتعبيراتها الفنية ، كما نصادفه في حواراتها وخطاباتها اليومية في مجال الفلاحة والصناعة وغيرها، وهذا قدر متفق عليه عند مثبت المجاز ومنكره*[24]، فاللغة »مشتملة على الحقيقة والمجاز ولكن مراد المثبتين يختلف عن مراد المنكرين ، فالمثبتون يريدون من هذا القول وجود المجاز فنا وعلما ، أما المنكرون فمرادهم وجوده فنا ومنهجا وطريقة من طرائق العرب

*[24] أنكر وقوع المجاز في اللغة والقرآن الكريم بعض الأئمة كابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية في المتقدمين ومحمد الأمين الشنقيطي في المتأخرين ، غير أن جمهور الأمة على إثبات وقوعه ، ولايمكن التوسع في أدلة الفريقين ومن أراد الإحاطة بالموضوع فعليه بدراسة الدكتور عبدالعظيم المطعني التي وسمها بـ (المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع) والتي تقع في أكثر من ألف صفحة لم يترك فيها زيادة لمستزيد ختمها بقوله : إن إنكار المجاز في اللغة بوجه عام وفي القرآن الحكيم بوجه خاص ، إنما هو مجرد دعوى بُنيت على شبهات واهية ، كُتب لها الذيوع والانتشار والشهرة ولكن لم يُكتبْ لها النجاح .أهـ

في الإفصاح والتصوير، وينفون وجوده علما ، فبين الفريقين قدر مشترك من التسليم باشتمال اللغة على المجاز وتكلُّم العرب به.»[25]

والمجاز شأنه شأن كثير من المعارف التي بحثها القدماء لم يصَبْ في قالب اصطلاحي يبرز معالمه ويرسم حدوده ، لأن اهتمام الأوائل لم يكن منصبا على جمع مدونة مصطلحات أو سياقة ما تبلور في أذهانهم من مفاهيم في تعريفات وتحديدات ، وأول تأليف في المجاز ذكره بالاسم كان مع أبي زيد القرشي (170هـ) في مقدمة كتابه " جمهرة أشعار العرب" ، فذكره مرتين مرة كعنوان للمقدمة (اللفظ المختلف ومجاز المعاني) ومرة في صلب هذه المقدمة ، ثم جاء بعده الخليل بن أحمد كما نقل عنه سيبويه فأورد في " الكتاب" بعض النصوص التي أُثرت عنه وصرفها صرفا مجازيا ؛ أما سيبويه نفسه فلم يسم المجاز باسمه فقد كانت لمحاته إرهاصا لتلك التسمية المختصرة ، وأثناء تتبعه التأويلات المجازية التي حفل بها " الكتاب" كرر عبارة (التوسع في الكلام) وهو مصطلح من مصطلحات كثيرة كانت بمثابة النواة التي نبت منها فيما بعد الكثير من المباحث كالمجاز العقلي والمجاز اللغوي المرسل والمجاز الاستعاري التصريحي والكنائي ، والتجوز في الحروف والمجاز بالحذف إلى مباحث كثيرة في علمي المعاني والبيان [26]

[25] – المطعني ، عبد العظيم محمد – المجاز في اللغة والقرآن الكريم – مكتبة وهبة ، القاهرة – ط : 2 / 2007 – ج : 2 ص : 364

[26] – حسين ، عبدالقادر – أثر النحاة في البحث البلاغي– دار غريب، القاهرة – دط/1998– ص:118–125

من أمثلة ذلك قوله: » ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف قوله عز وجل: }بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ/33] فالليل والنهار لا يمكران، ولكن المكر فيهما.»[27] وقوله في موضع آخر : » ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جده: }واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [يوسف/82] إنما يريد: أهل القرية، فاختصر وعمل الفعل في القرية كم كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا.»[28]

وعاصر سيبويه عالمان لهما في تأسيس علم المجاز جهود ماثلة للعِيان وهما أبو زكريا يحي المعروف بالفراء في كتابه "معاني القرآن" وأبوعبيدة معمر بن المثنى في كتابه " مجاز القرآن " ، فالفراء أودع كتابه مئات الصور المجازية دون أن يسميه باسمه الصريح فمعرفته به ممارسة لا مصطلحا ، أما أبوعبيدة فهو بلا منازع من تعزى إليه إذاعة مصطلح (المجاز) وشهرته وإن لم يرِد عنده بالمعنى الدقيق للمصطلح كما عُرف فيما بعد، غير أن كثرة استشهاداته للدلالة على وقوعه في كلام العرب وفي نصوص الذكر الحكيم كان لها أبلغ الأثر في لفت الأنظار إلى هذه الظاهرة والتسليم بوجودها ورسوخ مفهومها في الأذهان.

1 – تعريف المجاز :

يعرف علماء البلاغة المجاز اختصارا بقولهم هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.[29] كقولنا: فلان يتكلم بالدرر، فالدرر

---

[27] – سيبويه ، عمرو بن عثمان – الكتاب (تح : عبدالسلام هارون) – ص : 176

[28] – سيبويه ، عمرو بن عثمان – الكتاب (تح : عبدالسلام هارون) – ص : 212

[29] – القزويني ، الخطيب – تلخيص المفتاح – المكتبة العصرية ، بيروت– ط : 1 / 2002 – ص : 149

المستعملة في الكلمات الفصيحة استعملت في غير ما وضعت له ؛ إذ وضعت في الأصل للآلئ الحقيقية ، ثم نقلت إلى الكلمات الفصيحة ؛ لعلاقة المشابهة بينهما في الحسن ، والذي يمنع من إرادة المعنى الحقيقي قرينة (يتكلم).

ومنه فإن كانت علاقة المجاز المشابهة بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي كما في المثال السابق سمي استعارة ، وإن كانت العلاقة غير المشابهة سمي مجازًا مرسلا لأنّه لم يقيّد بعلاقة المشابهة ، أو لأنّ له علاقات شتى ، وهناك مجاز لا علاقة له بالألفاظ أو التراكيب بل علاقته بالإسناد وهو ما سنفصله فيما يلي :

2 – أقسام المجاز :

أ – المجاز اللغوي : ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معان أخرى بينها صلة ومناسبة وهذا المجاز يكون في المفرد، كما يكون في التركيب المستعمل في غير ماوضع له وهو نوعان :

المحاضرة رقم : 16 / الاستعارة

أ.**1– الاستعارة** : الاستعارة لغة رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، يقال استعار فلان سهما من كنانته ، رفعه وحوّله منها إلى يده ، وعلى هذا يصح أن يقال استعار إنسان من آخر شيئا ، بمعنى أن الشيء المستعار قد انتقل من يد المعير إلى المستعير للانتفاع به ، فالاستعارة لا تتمّ إلا بين متعارفين تجمع بينهما صلة ما.

وعرّفها الخطيب القزويني بقوله : «الاستعارة مجاز علاقته تشبيه معناه بما وضع له ، وكثيرا ما تطلق الاستعارة على استعمال اسم المشبّه به في المشبّه، فيسمى المشبه به مستعارا منه،

والمشبه مستعارا له ، واللفظ مستعارا»[30]

فالاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، وهي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه ، وقرينة الاستعارة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي قد تكون لفظية أو حالية.

أ.3.1- تقسيم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية:

ويقسّم البلاغيون الاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها إلى : تصريحية ومكنية.

- **فالاستعارة التصريحية** : وهي ما صرّح فيها بلفظ المشبه به ، أوما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه ، كقول المتنبي في وصف دخول رسول الروم على سيف الدولة :

وأقبل يمشي في البساط فما درى *** إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

- **وأماالاستعارة المكنية** : وهي ما حذف فيها المشبه به أو المستعار منه، ورمز له بشيء من لوازمه ؛ كقول دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل * ضحك «المشيب» برأسه فبكى**

وكقول الحجاج: «إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها»

أ.2.1- إجراء الاستعارة

يقصد بإجراء الاستعارة تحليلها إلى عناصرها الأساسية التي تتألف منها، وهذا التحليل يتطلب تعيين كلّ من المستعارمنه والمستعار له في الاستعارة ، وعلاقة المشابهة أوالصفة التي تجمع

---

[30]- القزويني ، الخطيب – الإيضاح في علوم البلاغة – دار الكتاب العربي ، بيروت– ط : 1 / 2004 – ص : 194

بين طرفي الاستعارة ، ونوع الاستعارة ، وكذلك نوع القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ، والتي تكون أحيانا لفظية وأحيانا حالية تفهم من سياق الكلام.

مثال على إجراء الاستعارة : قال أبو خراش الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها* أبصرت كل تميمة لا تنفع**

في هذا البيت شبّهت «المنية» بحيوان مفترس بجامع إزهاق روح من يقع عليه كلاهما، ثم حذف المشبه به «الحيوان المفترس» ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو «أنشبت أظفارها»، والقرينة لفظية وهي إثبات الأظفار للمنيّة. والاستعارة هنا «مكنية» لأن المشبه به قد حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه.

أ.3.1- تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية

ويقسم البلاغيون الاستعارة تقسيما آخر باعتبار لفظها إلى أصلية وتبعية.

- **فالاستعارة الأصلية** : هي ما كان اللفظ المستعار أواللفظ الذي جرت فيه اسما جامدا غير مشتق ؛ كقول المتنبي:

حملت إليه من لساني «حديقة» *** سقاها الحجا سقي الرياض السحائب

وإذا تأملنا اللفظ المستعار وهو «الحديقة» رأيناه كذلك اسما جامدا غير مشتق ، ومن أجل ذلك تسمى «استعارة أصلية».

- **الاستعارة التبعية** : وهي ما كان اللفظ المستعار أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسما مشتقا أو فعلا ، مثل قوله تعالى : }وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف/154] فلفظة «سكت» مشبه به ، وصرح به لذلك فالاستعارة

تصريحية ، وفي إجرائها نقول : شبه انتهاء الغضب عن موسى «بالسكوت» بجامع الهدوء في كل، ثم استعير اللفظ الدّال على المشبه به وهو «السكوت» للمشبه وهو «انتهاء الغضب» ، ثم اشتق من «السكوت» بمعنى انتهاء الغضب «سكت» الفعل بمعنى انتهى.

أ.4.1- تقسيم الاستعارة إلى مرشحة ومجردة ومطلقة

وتقسم باعتبار الملائم تقسيما ثالثا إلى مرشحة ، ومجردة ، ومطلقة

- **الاستعارة المرشحة:** هي ما ذكر معها ملائم المشبه به ، أي المستعار منه.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ﴾ [البقرة /16] فالاشتراء مستعار للاستبدال ، وذكر الربح والتجارة ترشيح ، لأن جملة (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) تقوي الاستعارة ، بعد أن اكتملت أركانها.

- **والاستعارة المجردة** : هي ما ذكر معها ملائم المشبه، أي المستعار له ، نحو: كقوله تعالى ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [النحل/112] ، استعير اللباس لما غشي الإنسان عند الجوع والخوف ، والإذاقة تجريد لذلك.

- **والاستعارة المطلقة** : هي ما خلت من ملائمات المشبه به والمشبه ، وهي كذلك ما ذكر معها ما يلائم المشبه به والمشبه معا كقولك : (جالستُ أسدا ذا لِبَدٍ شاكي السلاح) فهذه استعارة مرشحة من جهة ذكر ما يلائم المشبه به وهو اللبد للأسد (المشبه به) ، وهي استعارة مجردة من جهة ذكر ما يلائم المشبه وهو قولك شاكي السلاح ، فعند ذكر الترشيح والتجريد معا تساقطا فصارت الاستعارة مطلقة.

ومن أمثلتها كذلك قول كثيّر عزة :

رمتني «بسهم» ريشه الكحل لم يضر *** ظواهر جلدي وهو للقلب جارح

ففي لفظة «سهم» استعارة تصريحية أصلية ، ويقال في إجرائها: شبه «الطرف» بسكون الراء «بالسهم» بجامع الإصابة بالضرر والأذى ، ثمّ استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو «السهم» للمشبه وهو «الطرف» على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي لفظية وهي «الكحل».

وإذا تدبرنا هذه الاستعارة التي استوفت قرينتها رأينا أنّه قد اقترن بها ملائم للمشبه به «السهم» وهو «الريش»، وكذلك ملائم للمشبه «الطرف» وهو «الكحل» ، ولهذا السبب الذي يتمثل في اقتران الاستعارة بما يلائم المشبه به والمشبه معا سميت استعارة «مطلقة».

ومن الاستعارات المطلقة التي خلت من الترشيح والتجريد قول المتنبي يخاطب ممدوحه:

يا بدر يا بحر يا غمامة يا ليـ * ـث الشَّرى يا حِمام يا رجلُ**

فهذه الاستعارات لم تقترن بما يلائم المشبه أو المشبه به.

أ.5.1- **الاستعارة التمثيلية** : يطلق البلاغيون اسم «الاستعارة التمثيلية» على الاستعارة التي يكون فيها المستعار تركيبا أي ليس لفظا مفردا كما مر في الاستعارات السابقة ، بشرط أن تكون العلاقة المشابهة ، كما يقال للمتردد في أمر: إني أراك تقدِّم رجلًا وتؤخر أخرى ؛ فليس المراد حقيقة تقديم الرِّجل ، لكن شبه حاله في التردد بحال من يقدم رجلًا ويؤخر أخرى فالذي يقدم رجلًا ويؤخر أخرى لا يمكن أن يتقدم ، بل يبقى يراوح مكانه ، فيقال إنها استعارة تمثيلية ، كقول المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض* يجد مرّا به الماء الزلالا**

فيقال في إجراء هذه الاستعارة : شبهت حال من يعيبون شعر المتنبي لعيب في ذوقهم الشعري بحال المريض الذي يجد الماء العذب الزلال مرا في فمه بجامع السّقم في كلّ منهما، ثمّ استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الأصلي قرينة حالية تفهم من سياق الكلام.

أ.2- **المجاز المرسل** : هو مجاز علاقته غير المشابهة وله علاقات شتى منها:

أ.1.2- كالسببية في قولك : عظمت يد فلان عندي ؛ أي نعمته التي سببها اليد.

أ.2.2- والمسببية في قولك : أمطرت السماء نباتًا ؛ أي مطرًا يتسبب عنه النبات.

أ.3.2- والجزئية في قولك : أرسلت العيون لتطلع على أحوال العدو؛ أي الجواسيس.

أ.4.2- والكلية في قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [البقرة/19] ؛ أي أناملهم.

أ.5.2- واعتبار ما كان في قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء/2] ؛ أي البالغين.

أ.6.2- واعتبار ما يكون في قوله تعالى:﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف/36] أي عِنبًا.

أ.7.2- والمحلية في قولك : قرر المجلس ذلك ؛ أي أهلُه.

أ.8.2- والحالية في قوله تعالى: ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران/107] أي جنته.

ب – **المجاز العقلي** :

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي ، فالفرق بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي أن الأول يكون في اللفظ والثاني يكون

في الإسناد ، كقولنا : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة ، وهزم الأمير الجند ، وبنى الوزير القصر ؛ فكل هذه الأفعال أسندت لغير فاعلها الحقيقي.

فالشاعر الصَّلَتان العبدي عندما قال :

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبير * رَ كرُّ الغداة ومرُّ العشي**

فإنه أسند الإشابة والإفناء إلى كر الغداة ومرور العشي وهو إسناد إلى غير ما هو له ؛ إذ المُشِيب والمفني في الحقيقة هو الله تعالى.

ومن المجاز العقلي إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول نحو: ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة/21] يعني: مرضية ، فأتى باسم الفاعل ، ويراد به اسم المفعول ، فقد أسند الرضا إلى العيشة ، والعيشة لا تَرضَى، وإنما العيشة تُرضَى ، وعكسه ، نحو: سيل مُفْعَم يعني: فاعم ، أو مُفعِم مع أنه مبني للمجهول ؛ لأن في اللغة العربية ألفاظًا، لا يمكن أن تبنى إلا للمفعول ، ولا تبنى للفاعل ، وقد يكون الإسناد إلى المصدر، نحو: جدَّ جدُّه ، وإلى الزمان، نحو: نهاره صائم ، وإلى المكان نحو: نهر جار ، وإلى السبب، نحو: بنى الأمير المدينة.

المحاضرة رقم : 17 / الكنـــــاية والتعريض

1 – **الكناية** : مصدر كنى يكني تكنية وكناية وفي اصطلاح البلاغيين هي ترك التصريح باللفظ إلى لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الحقيقي ، ويتم اللجوء إلى الكناية لأسباب عدة إما لأن التصريح مما يُستقبح ذكره ، كاستعمال الملامسة والرفث كناية عن الجماع ، أو لقصد المبالغة كاستعمال بسط اليد للدلالة على الإسراف والتبذير ، أو لاختيار لفظ أجمل وأدق في التعبير، كالتكنية بالنعجة عن المرأة أو الزوجة وكل هذا ورد في القرآن الكريم ، ولابد في اختيار الكناية بدلا من التصريح من مبرر يقصده المتكلم ويريد الإشارة إليه للستر والإخفاء أوللمدح والذم أوللاختصار والتيسير وهو أسلوب ذكي في التعبير، لأن ما تحققه الكناية لا يحققه الصريح من الألفاظ ، بل قد يؤدي التصريح إلى جرح المشاعر في بعض الأحيان أوالإسفاف في اللفظ ونزع جلباب الوقار والهيبة مما يحرج المتكلم والسامع ، ولذلك ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: »الملامسة والمباشرة والإفضاء والرفث والغَشَيان والجماع كله : النكاح ، ولكن الله حييٌّ كريم يُكـنّي عما شاء.«[31]

وتنقسم باعتبار المكنَّى عنه إلى ثلاثة أقسام:

أ– كناية يكون المكنى عنه فيها صفة ؛ كقول العرب (فلانة بعيدة مهوى القُرط) كناية عن صفة طول العنق ، أو كقول الخنساء:

طويل النجاد رفيع العماد *** كثيرُ الرماد إذا ما شَتَا

[31] – العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر – فتح الباري شرح صحيح البخاري – مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط :2013/1 ج : 13 – ص : 230

فقولها (طويل النِّجاد) أي حمالة السيف وهوكناية عن صفة الطول والشجاعة ، وقولها (رفيع العماد) كناية عن صفة المكانة والسؤدد ، و(كثير الرماد) كناية عن الكرم والجود.

أو كقول إبراهيم بن هَرْمة :

ما بك فيَّ من عيب فإني * جبان الكلب مهزول الفصيل**

فهو يكني عن كرم الممدوح بكونه جبان الكلب لكثرة غشيان الضيفان له ، مهزول الفصيل لنحره النياق الأمهات لهؤلاء الضيفان وتركه الفصلان بدون مراضع.

ب – كناية يكون المكنى عنه فيها موصوف ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم/48] كناية عن يونس عليه السلام.

أوكقول عمرو بن مَعْدِيكَرِب

الضاربين بكل أبيضَ مُخذِم * والطاعنين مجامع الأضغان**

فإنه كنى بمجامع الأضغان عن موصوف هو القلوب مدحا لقومه بالشجاعة والبسالة.

وتكثر الكناية عن الموصوف في الكلام الإنشائي من ذلك قولهم : (لغة الضاد) كناية عن العربية و(أبناء النيل) كناية عن المصريين و(بناة الأهرام) كناية عن الفراعنة ...

ج – كناية يكون المكنى عنه فيها نسبة ؛ نحو: المجد بين ثوبيه ، والكرم تحت ردائه ، تريد: نسبة المجد والكرم إليه.

وكقول زياد الأعجم في مدح ابن الحَشْرَج :

إن السماحة والمروءة والندى ***في قبة ضُربت على ابن الحشرج

فإن جعل هذه الأشياء الثلاثة جمعت في قبة ثم ضربت في مكان ممدوحه ابن الحشرج المختص به مما يستلزم إثباتها ونسبتها إليه.

والكناية إن كثرت فيها الوسائط سميت تلويحًا، نحو: هو كثير الرماد؛ أي: كريم؛ فإن كثرة الرماد تستلزم كثرة الإحراق ، وكثرة الإحراق تستلزم كثرة الطبخ والخبز، وكثرتهما تستلزم كثرة الآكلين ، وهي تستلزم كثرة الضيفان ، وكثرة الضيفان تستلزم الكرم.

وإن قلَّت وخفيت سميت رمزًا ، نحو: هو سمين رِخو؛ أي: غبي بليد.

وإن قلَّت فيها الوسائط أو لم تكن ووضحت سميت إيماءً وإشارة ، نحو قول البحتري:

أو مارأيت المجد ألقى رحله* في آل طلحة ثم لم يتحول**

كناية عن كونهم أمجادًا.

2 – التعريض : وهو قريب من الكناية وهو ذكر شيء للدلالة على شيء آخر هو المراد بالكلام ، ويختلف التعريض عن الكناية من حيث أن الدلالة في أسلوب الكناية ترتد إلى التلازم العرفي بين المعنى القريب الظاهر والمعنى البعيد الخفي ، أماالدلالة في أسلوب التعريض فلا تفهم إلا من السياق والإلمام بملابساته ، ومن أمثلته في القرآن الكريم الإشارة إلى عجز آلهة قوم إبراهيم –عليه السلام– عن فعل أي شيء ، والسخرية من عقول المؤمنين بها في رد إبراهيم –عليه السلام– لما سئل عن الذي حطم آلهتهم فـ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء/63] ، أوكقولك لشخص يضر الناس: خير الناس من ينفعهم. ومن ذلك التعريض بخطبة النساء في فترة العدة فقال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن

لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [الأنبياء/63] فذكر المفسرون كالطبري وابن كثير الكثير من عبارات التعريض التي يفهم منها أن قائلها يود التقدم لخطبة هذه المرأة عند إنقضاء عدتها من ذلك : إنك لجميلة ، وإنك لنافقة ، وإنك إلى خير، لوددت أني وجدت امرأة صالحة ، إن الله سائق إليك خيرا ورزقا، ونحو هذا من الكلام، وعقد البخاري بابا في صحيحه سماه : (باب المعاريض مندوحة عن الكذب) لأن للكلام وجهين يطلق أحدهما وقد يراد لازمه ، وذكر في أول هذا الباب قول إسحاق قال : سمعت أنسًا رضي الله عنه يقول: مات ابنٌ لأبي طلحة، فقال: كيف الغلام؟ فقالت أم سُلَيْمٍ: هدَأَ نفَسُه، وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أنها صادقة ، يقول شارح البخاري ابن حجر العسقلاني معقبا : » فإن أبا طلحة فهم من ذلك أن الصبي المريض تعافى لأن قولها هدأ مهموز بوزن سكن ومعناه والنفس بفتح الفاء مشعر بالنوم والعليل إذا نام أشعر بزوال مرضه أو خفته وأرادت هي أنه انقطع بالكلية بالموت وذلك قولها وأرجو أنه استراح فهم منه أنه استراح من المرض بالعافية ومرادها أنه استراح من نكد الدنيا وألم المرض فهي صادقة باعتبار مرادها وخبرها بذلك غير مطابق للأمر الذي فهمه أبو طلحة فمن ثم قال الراوي وظن أنها صادقة أي باعتبار ما فهم هو.»[32]

وقد تتحول الكناية إلى تعريض إذا علم السياق من ذلك قول الشاعر قريط بن أنيف :

لايسألون أخاهم حين يندبهم * في النائبات على ما قال برهانا**

[32] – العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر – فتح الباري شرح صحيح البخاري – ج : 18 – ص : 651

ففي هذا البيت كناية عن صفة وهي شجاعة هؤلاء القوم وسرعة نصرتهم ونجدتهم ، فإذا علم السياق الذي قيل فيه وهو تقريع قومه ولومهم على وتخاذلهم في نصرته عندما ظلم ، تحولت الكناية إلى تعريض ، والفرق بين الكناية التعريض أنه في الكناية يطلق اللفظ ويراد لازم معناه ، أما في التعريض فالكلام لا يعرف المراد منه إلا بالسياق.

المحاضرة رقم:18 التحول في الأسلوب

أولا :الالتفات :

يرى ابن الأثير أن الالتفات: هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن.

ولقد كان الزمخشري أسبق من ابن الأثير في تناول هذا الفن من فنون الكلام، وبيان ما يحدثه من أثر نفسي، وما يكون له من شأن في مجال التأثير في المستمع. يقول في تعليقه على قول الله سبحانه وتعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين" فإن قلت لم أعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان. وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة. ومن الغيبة إلى التكلم. وبعد أن يمثل لهذه الأمور يذكر ما فعله امرؤ القيس في قوله:

تطاول لَيْلُك بالإثْمدِ وبات الخَلِيُ ولم ترقُدِ

وبات وباتت له ليلة كليلةِ ذي العاثِرِ الأرْمَدِ

وذلك من نبأً جاءني وخبرته عن أبي الأسود

إذ التفت فيها امرؤ القيس ثلاث مرات : « وذلك على عادة افتنانهم و الكلام وتصرفهم فيه . ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية النشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعه بفوائد» [33] ، وتبين هذه العبارة كنه هذا الأسلوب ، وأنه أحد طرق العرب في الافتنان في الأسلوب لجذب الانتباه وإيقاظ النفس وتحريكها لقبول ما يلقى إليها . وإيقاظ النفس وتطريتها ، وبعث النشاط فيها غاية من الغايات التي يسعى إليها المتحدث . وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذا .. لكنها هنا تظهر بجلاء في كلام الزمخشري . كما تبين هذه العبارة أن حالات التحول – وإن شاركت – في الأصول العامة التي أشرنا إليها فإن كل حالة منها لها خصيصة تنفرد بها عن غيرها .

[33] الكشاف: ج1، ص11.

وإذا كان البلاغيون يتفقون على الآثار الفنية التي تكون لهذا النوع من الكلام ، فإنهم يختلفون حول مفهومه ، والأمور التي يتحقق فيها . فجمهور البلاغيين يقصره على الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث : الحكاية ، والخطاب ، والغيبة إلى الأخرى . والزمخشري ومن بعده السكاكي وابن الأثير يمتدون به ، ويجعلونه الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أو حتى التعبير على نحو لم يكن حسب ما يقتضيه الظاهر . وقد سبق أن ذكرنا في صدارة هذا الكلام ما ذهب إليه الزمخشري. وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب فيه نطرية لنشاط السامع وإيقاظ له

ولعل تعريف ابن الأثير لهذا النوع من التراكيب يزيد القضية جلاء ووضوحاً .

فحقيقة «الالتفات» مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا.

«وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه يقبل فيه من صيغة إلى صيغة، كإنتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا».[34]

كما أن مذهب الجمهور يشترط أن يكون قد سبق كلام في إحدى الصيغ وينقل إلى غيرها على نحو لم يكن يتوقعه السامع، أو يقتضيه السياق. فلا يدخل في ذلك مجيء الكلام على غير ما يقتضي الظاهر ابتداء. فمثل قول الشاعر:

إلهي عبد العاصي أتاكا　　　　مقرا بالذنوب وقد دعاك

لا يعد من الالتفات عند الجمهور لأنه لم يسبقه كلام وتم التحول عنه، بينما هو من الالتفات عند الزمخشري وابن الأثير والسكاكي، لأنه جاء على خلاف مقتضى الظاهر، فقد ذكر الاسم الظاهر «عبدك» والمقام مقام تكلم.[35]

[34] المثل السابر: القسم الثاني-167-168.
[35] المنهاج الواضح: ج4، 206 وما بعدها.

أنواع الالتفات:

أولا: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب:

ويتحقق ذلك في قوله تعالى: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين».

فقد تم الإنتقال من الغيبة في الآيات الأولى، إلى الخطاب في قوله تعالى: «إياك نعبد، وإياك نستعين». يقول ابن الأثير: «فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك» ولا تعبده؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسطه مه الغيبة في الخبر، فقال: (الحمد لله) ولم يقل الحمد لك، ولم اصار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: (إياك نعبد) فخاطب بالعبادة إصراحا بها، وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها». ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاضا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام. تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بالصفات. فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لانعبد غيرك، ولا نستعينه. ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به»[36]

ومما جاء في الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ما قاله المتنبي في آخر قصيدة يمدح فيها ابن العميد في النيروز مطلعها :

جاء نيروزنا وأنت مراده ... وورت بالذي أراد زئاده

وفيها يقول :

والذي عندنا من المال والخيـ ... ـل فمنه هباته وقيادة

فبعثنا بأربعين مهاراً ... كل مهر ميدانه إنشاده

عدد عشته يرى الجسم فيه ... أرباً لا يراه فيما يزاده

[36] الكشاف: ج1، 11.

فارتبطها فإن قلباً تماما مربط تسبق الجياد جيادة

وأبو الطيب كان يهنىء بهذا العيد المسمى بالنيروز . ومن عادة الفرس فيه أن تحمل الهدايا إلى الملوك ولهذا يحمل المتنبي هداياه إلى ابن العميد قصيدة من أنه قلب الفكر وأداره ماذا يحمل إلى ممودحه في مثل هذا أربعين بيتا . يزعم أنه قلب الفكر وأداره ماذا يحمل إلى ممدوحه في مثل هذا اليوم ، وكل الهدايا إنما هي هباته وعطاياه . فلم يجد إلا تلك الغرر ، جعل كل بيت منها «مهراً» ، وهو الفتى من الخيل . وقد تلطف أبو الطيب في الوقوف بالعدد عند الأربعين لأنها العمر التي يقال إن المرء إذا تجاوزها اختلف في أحوال جسمه وتصرفه و نقص عما كان قبلها . وقد أراد المتنبى أن تضاف سنوات بهذا العدد إلى عمر ابن العميد وقد عد ابن الأثير هذه الأبيات من إحسان أبي الطيب . ورأى احتجاجه بالوقوف عند . الأربعين بأنه من الحجج الغريبة.

ثانيا : الرجوع من الخطاب إلى الغيبة :

وذلك على نحو ما نجد في قوله تعالى : (حتى إذا كنتم في الفلك لمن وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) يونس 22، وفائدة هذا التحول أنه يذكر حالهم لغيرهم ليجعله يتعجب من صنيعهم وكأنه يخاطب كل عاقل ويخبره بهذا النكران الشنيع لينفره منه ، ويجعله يستنكره ويستقبحه.

إن خصوصية الالتفات من الخطاب إلى الغيبة التي وقف عليها جار الله الزمخشري ، هي نفس الخصوصية التي ذكرها ابن الأثير . ولا تكاد عبارة الأخير تختلف عن عبارة الزمخشرى[37]. لكن تجدر الإشارة إلى أن مقتضيات الأحوال، ومناسبة المقامات قد تكشف عن أمور أخرى ، وتشير إلى أغراض غير تلك التي نجدها في غيرها . فإذا كان الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية السابقة للمبالغة و كأنه يذكر لغيره. حاله ليعجبهم منها ، ويستدعى الإنكار والتقبيح ، فإن الإنصراف إلى الغيبة قد يكون في مقام المدح والثناء أمدح وأعظم ثناء، وكأن المتكلم يروى الأمر للآخرين تعجبا واستعظام . وهذا ما يكشف عنه

[37] المثل السايرر: القسم الثاني 178. الكشاف: ج1، 67.

الزمخشري في قوله تعالى : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله، فأولئك هم المضعفون» فالالتفات هنا كأنه قال لملائكته وخواص خلقه فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : « فأنتم المضعفون » .

علينا في الالتفات إذن أن نلاحظ الأسس العامة التي تحدث عن التحول بالأسلوب من طريق إلى آخر ، ثم نبحث في كل انتقال عن النكتة التي أدت إليه ، مسترشدين بالمقامات وحالات النفس ، والأغراض التي يصاغ لها القول. وقد تنبه ابن الأثير إلى أن الانتقال بالأسلوب إلى حالة ما قد يأتي للغاية وعكسها . يقول ابن الأثير في هذا : (والذي عندي أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ، ليقاس عليها غيرها ، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه – وهو الأول – قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى على حسب الموضع الذي ترد فيه.[38])

ثالثا: الرجوع من الخطاب إلى التكلم:

على نحو ما جاء به في قوله تعالى: «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحم ودود» فقد عبرت الآية عن الذات الكريمة بأسلوب الخطاب (ربكم) ثم عدلت فعبرت عنها بأسلوب التكلم (إن ربي).

ومن هذا النوع قول الشاعر:

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

يكلفني ليلى، وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب

[38] المثل السايرر: القسم الثاني 170.

ففى البيت الأول يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه . ويقول : ذهب بك وأتلفك قلب مولع بالحسان . في وقت ذهب فيه عهد التصال ، وحل محله المشيب . وهو يكلفك ما لا طاقة لك به ، ولا قدرة لك عليه ... إنه يكافك هوى ليل وطلبها ، وقد بعدت بينكما الشقة ، وزاد الخلف وفرقت بينكما الأحداث والخطوب . وكان مقتضى السياق أن يقول في البيت الثاني : (يكلفك ، ليكون على نهج الأول (طحا بك) لكنه عدل عن ذلك إلى الحديث عن نفسه ليبين أنه المعنى بهذا.

رابعاً : الرجوع من التكلم إلى الخطاب :

على نحو ما جاء في قوله تعالى : «وما لي لا أعبد الذي فطرنى وإليه ترجعون » فقد عبرت الآية الكريمة من الذات الإلهية بطريق التكلم هو «الذي فطرنى» ثم التفت إلى الخطاب في قوله : « وإليه ترجعون » . وفي هذا الالتفات إشعار لهؤلاء أنهم سيرجعون إلى الله ، وأنه سوف يجزيهم بأعمالهم . وفي هذا تحذير لهم من المخالفة لما أمر به . ومن هذه الحالة حالات الالتفات أي العدول من المتكلم إلى الخطاب . ما جاء في قوله تعالى : «عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى» . يقول الزمخشري في بيان الغاية من هذا الإلتفات : " وقد يعدل المتكلم إلى الخطاب تخييلا بالإقبال على المخاطب ومواجهته بزيادة اللوم والإنكار" ، ويمثل بالآية السابقة . ثم يقول : "وفى الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجها له بالتوبيخ وإلزام الحجة". [39]

خامساً : الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

وذلك نحو قوله تعالى : «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسه لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » الدخان 1-5، فقد بدأت الآية الكريمة بمخاطبة العباد حيث أضافهم الله إلى نفسه، تأكيدا لعبوديتهم له ، وطلب منهم ألا يقنطوا. لكنه عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله : « من رحمة الله »وكان مقتضى الظاهر أن يقول : «لا تقنطوا من رحمتي».

[39] الكشاف: ج4، 560.

ومن ذلك الصنف العدول قوله تعالى : «حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك » واللطيفة في هذا الالتفات أن عظمة الربوبية والرحمة السابقة تقضيان إرسالك بهذا الكتاب المبين ، والعلم المحيط بكل الأشياء اقتضى أن يكلأك برحمته، ويحفظك برعايته ، فلا تخش أحدا من أعدائك. [40]

ومنه أيضا قوله تعالى : «إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » فقد كان مقتضى الظاهر أن يقول : فصل لنا. لكنه التفت إلى الغيبة لمكان الربوبية الانقياد والطاعة وعظمتها ، وما يجب لها من الانقياد والطاعة.

سادسا : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

وعليه قوله تعالى : « فقضاهن سبع سماوات في يومين ، ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » فصلت 12.

ومنه أيضا قوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت، فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور» فاطر9. وقد ورد في القرآن الكريم التحول من الغيبة إلى التكلم ثم التحول من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنره من آياتنا، إنه هو السميع البصير»الإسراء1.

ولا يقف التحول من أسلوب إلى آخر عند الأمور السابقة، وإن كانت هذه الأمور موضع إجماع عند علماء البلاغة.

وإكمالا للتحول في الأساليب نسوق بعض المواضع التي ذكرها علماء البلاغة.

ومن بين هذه المواضع.

[40] الكشاف: ج4، 56.

وضع الظاهر موضع المضمر :

ومما جاء على هذا النحو قوله تعالى : «يا أيها الناس إلى رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » الأعراف 157.

فالآية في أولها تتحدث على لسان الرسول ﷺ ، وهو يقول : «إنى رسول الله إليكم » وكان الظاهر يقتضى أن يكون الحديث في آخرها : «فأمنوا بي » لتكون عطفا على قوله : « إنى رسول الله »لكنه سبحانه عدل بالحديث عن التكلم ، ووضع الاسم الظاهر محله : (فامنوا بالله ورسوله النبي الأمي » وقد كان العدول إلى الظاهر من أجل أن تجرى عليه الصفات التي أجريت . وليبين أن الذي يجب اتباعه والإيمان به هو هذا الشخص الذي وصف بأنه النبي الأمي ، وأنه الذي يؤمن بالله وكلماته . سواء كان هو أو سواه من الرسل . وقد لخص ابن الأثير هذا العدول في أمرين : الأول منهما: إجراء الصفات عليه . والثاني: الخروج من تهمة التعصب لنفسه .[41]

[41] المثل السايرر: القسم الثاني 179.

محاضرة رقم 19 ثانيا: التبادل بين الأفعال....تابع

ومن التحول في الأساليب ، أو الانتقال من أمر إلى آخر لنكتة بلاغية ما نجده من وضع صبغة من صيغ الأفعال مكان الأخرى . ولم يجعل ابن الأثير هذا الانتقال طلبا للتوسع في الكلام فحسب ، بل جعله لأمر وراء ذلك . وسوف نحاول الوقوف على بعض هذه اللطائف :

أولا : الرجوع من الفعل المستقبل إلى الأمر :

ويتم هذا تفخيما لمن أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتحقيرا لمن أجرى عليه فعل الأمر .. وذلك كقوله تعالى : «قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراض بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون »هود 53-54 .

فالسياق الذي يقتضيه ظاهر الحال أن يقول : « أشهد الله وأشهدكم ، لكن الآية عدلت عنه في قول هود عليه السلام ليظهر أن إشهاده رب العزة على البراءة من الشرك يختلف عن إشهادهم ، فبينما إشهاد الله صحيح فإن إشهادهم لا يعدو أن يكون نوعاً من السخرية والتهكم .

ثانيا : يأتى الرجوع من الفعل الماضي إلى الأمر:

وذلك نحو قوله تعالى : «قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين » وليست الخصوصية هنا كالخصوصية في الرجوع من المستقبل إلى الأمر ، بل الأمر يختلف ، لأنها هنا تكون لتحقيق الأمر وتوكيده في النفس ، فإن الصلاة من أوكد الفرائض التي فرضها الله على عباده ، فأمر بها سبحانه بعد قوله : (أمر ربى بالقسط) ثم أتبعها بإخلاص النية وهي من عمل القلب .

ثالثا : الإخبار عن الماضي بالمستقبل:

وينبهنا ضياء الدين بن الأثير على أنه ليس كل مضارع جاء جوابا للماضى كان له حظ من البلاغة . فهناك إخبار بالمستقبل عن الماضي ليس من أمور البلاغة ، لأنه في الحقيقة ليس إخبارا بمستقبل عن ماض ، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض

، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض[42]. ويمثل ابن الأثير لهذا النوع بقوله تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله » ويبين أن عطف المستقبل على الماضي، لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر ، مستأنف في كل حين[43]. وجاء من هذا الضرب أيضا قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » فقد كان مقتضى الظاهر أن يقول : فأصبحت الأرض ، لتكون مناسبة لأنزل . لكنه عدل عن صيغة الماضي إلى المستقبل لإفادة استمرار أثر المطر زمانا بعد زمان ، ووقتا بعد آخر . وذلك كأن تقول : أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرا له .ويشير ابن الأثير أيضا إلى حسن هذا الموضع ويدعو إلى تأمله .. لكن العدول فيه ليس لأمر بلاغي، أو نكتة يريدها المتكلم ويعمد إليها.

كما نجد في النوع الآخر الذي يكون الإخار فيه عن الماضي بالمضارع لاستعادة الصورة التي حدث بها الفعل، وإعادتها أمام العين مائلة كأنها لا تزال مستمرة تحدث . يقول ابن الأثير : « اعلم ان الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة ، حتى كان السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي » [44].

ففي قوله تعالى : «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»فاطر9، يأتي المضارع : فتثير ، بين الأفعال الماضية ، والغرض من ذلك حكاية الحال التي يقع فيها إثارة السحاب إلى البلد الموات ، "واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة".[45]

ومن العدول عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة. قوله تعالى: «ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما

---

[42] المثل السايرر: القسم الثاني 53-54.
[43] السابق:173.
[44] المثل السائر: القسم الثاني 171.
[45] السابق.

خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»الحج30-31. فقد عطفت الآية قوله تعالى: «فتخطفه الطير، أو تهوي به»-الحج31- على خر. وإنما كان العدول من الماضي إلى المضارع «لاستحضار خطف الطير إياه أو هوي الريح له».[46]

رابعا: الرجوع عن المستقبل إلى الماضي. أو الإخبار عن الفعل المضارع بالفعل الماضي على خلاف ما يقتضيه ظاهر الحال:

ومن هذا الصنف من الكلام قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال ، وترى لأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٣) فقد قال سبحانه : وحشرناهم ← بعد قوله : « نسير » « وترى ، وهما مستقبلان . لبدل على أهمية الحشر ووقوعه ، ليقطع الطريق على من ينكره ولا يؤمن به إن الحشر يقع أولا ، ثم يأتى بعده البروز ورؤيته ، وتسيير الجبال.

ويجرى هذا المجرى – أي الإخبار عن المستقبل بالماضي ، الإخبار عن الفعل المستقبل باسم المفعول ، وإنما يتم ذلك لتضمن اسم المفعول معنى الماضى . ومن هذا النوع قوله تعالى : «إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » هود 103 , "فإنه إنما أثر اسم المفعول الذي هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذي هو (تجمع) لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة".(1).[47]

---

[46] المثل السابر: 173.

[47] المثل السابر: 187.

المحاضرة رقم 21 ثالثا :أسلوب الحكيم: .....تابع

ومما يأتى على خلاف مقتضى الظاهر ما أطلقوا عليه أسلوب الحكيم . وهو تلقى كلام المخاطب بغير ما يترقب . وإجابة السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره إشارة إلى أن ذلك الجواب الذي يجاب به هو الذي يجب أن يسأل عليه.

ومن خلال هذا التعريف يتضح لنا أن ما يطلق عليه أسلوب الحكيم يتضمن صورتين :

الصورة الأولى : أن يتحدث المخاطب وهو يريد معنى من المعاني ، فيتلقاه الآخر بشيء غير ما يريد ، لتنبهه على أن الثاني هو الأولى والأليق بمثله ، على نحو ما روى عن « القبعثرى» ، أحد الخوارج . وكان قد ذكر الحجاج بسوء، فبلغ ذلك الحجاج ، وحين أحضر بين يديه قال له الحجاج : لأحملك على الأدهم، يريد لأجعلنك في القيد . فيقول القبعثري : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب . يعنى : أن مثل الأمير يحمل على الخيل . وزاد ذلك بإضافة الأشهب .

لقد أبرز وعيد الحجاج في معرض الوعد . وحمل كلامه على معنى لم يرده الحجاج أو يقصاء إليه . ولهذا قال له الحجاج: « ويلك إنه لحديد» ، فقال القبعثرى : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا . فحمل كلام الحجاج مرة أخرى على غير ما أراد.

ومن هذا القبيل قول ابن الحجاج البغدادي :

قلت: ثقلت إذا أتيت مراراً قال : ثقلت كاهلي بالأيادي

قلت : طولت، قال : بل تطولت وأبرمت . قال : خبل ودادي

فقد أراد أنه ثقل من خلال كثرة طلبه وتكرر مجيئه . فكان الجواب أنه أثقل كاهل صاحبه بالأيادي والنعم . وأراد الأول الإبرام بمعنى (الملل) فحمله على إبرام عهود المودة وإحكامها .

ومن هذا النوع قول ابن نباتة السعدي :

أنت تشتكى عندى مزاولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلي

فقلتُ كأني ما سمعت كلامها هم الضيف جدى فى قراهم وعجلي

فالمرأة هنا ضائقة بالضيفان لكثرتهم ، فما يذهب فوج إلا ويأتى آخر . لهذا جاءت تشكو إلى الرجل ما تعانى من المشقة والنصب ، وقد رأت طائفة منهم تتجه نحو بيته . لكنه يقابلها بغير ما تتوقع فقد كانت تتوقع أن يعتذر لها أو يخفف عنها ، لكنه يتجاهل الأمر كله ، ويخاطبها طالبا منها الجد والتعجيل بالقرى فبلاء من الضيفان ، وكأنها تسر بهم وتسعد.

الصورة الثانية : أن يسأل سائل عن أمر فيجاب بغير ما يتوقع . وذلك بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها له على أن ذلك هو الأحق بالسؤال عنه . وذلك على نمر ما جاء في قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت للناس والحج » البقرة189، فسؤالهم كان عن سبب اختلاف القمر ، وظهوره في أشكال مختلفة.

وكان مقتضى الظاهر أن يجابوا عن السبب في ذلك . لكنهم اجيبوا بيان الحكمة والغرض من هذا الاختلاف .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون . قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ». فسؤالهم عن نوع ما ينفقون أو مقدار ما ينفقون . وكان مقتضى الظاهر أن يكون الجواب .. أنفقوا ذهبا أو فضة أو إبلا أو غيرها ... أو أنفقوا هذا المقدار أو ذاك . لكن الجواب كان على غير ما توقعوا حيث بين لهم المصارف التي يجب أن يكون الإنفاق فيها .

وليس التحول في الأساليب ، والانتقال من أمر لآخر وقفا على المواضع التي سبق ذكرها ، فهناك مواضع أخرى كالقلب ، وهو جعل جزء من الكلام مكان آخر ، مع إثبات كل حكم للآخر. .

لكن ذلك كله مشروط بتحقيق فائدة في الكلام ، وإكسابه نوعاً من الخلابة ، واستمالة النفوس إليه ، أو التأثير على المتلقى . والتلطف بالحديث معه على نحو يغير موقفه . كما

أنه من الضروري عدم اختلاف الدلالة أو غموض المعنى ، لأن البلاغة لا يمكن أن تتحقق إلا عند أمن اللبس.

ثَبَتُ المصادر والمراجع

1) الأخضري ، عبدالرحمن – الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون – دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء (المغرب) – ط : 1 / 2015

2) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر – البيان والتبيين – مكتبة الخانجي ، القاهرة – دط / 2003

3) الجارم ، علي ومصطفى أمين – البلاغة الواضحة – دار العلم الحديث ، دمشق – دط /1999

4) الجرجاني ، عبد القاهر – دلائل الإعجاز – دار المدني ، القاهرة – ط : 3 / 1992

5) ابن جني ، أبو الفتح عثمان – الخصائص– المكتبة العلمية ، بيروت – دط– دت

6) حسين ، عبدالقادر– أثر النحاة في البحث البلاغي– دار غريب، القاهرة – دط/1998–

7) الخنين، ناصر بن عبدالرحمن–النظم القرآني في آيات الجهاد –مكتبة التوبة، الرياض– ط:1/1996

8) الرافعي، مصطفى صادق– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية– دارالكتاب العربي، بيروت– ط:5/1999

9) زايد ، علي عشري – البلاغة العربية – مكتبة الآداب ، القاهرة – ط : 10 / 2017

10) سيبويه ، عمرو بن عثمان – الكتاب – دار الجيل ، بيروت – ط : 01 / دت

11) الصعيدي ،عبدالمتعال– بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – مكتبة الآداب، القاهرة – ط: 1/2009

12) ضيف ، شوقي – البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف ، القاهرة – ط : 08 / 1990

13) طبانة ، بدوي – البيان العربي – دار الثقافة ، بيروت – دط /1986

14) طبانة ، بدوي – علم البيان – دار الثقافة ، بيروت – دط /1981

15) عبدالمطلب ، محمد – البلاغة والأسلوبية – الشركة المصرية للنشر، القاهرة – ط : 1 / 1994

16) عتيق ، عبدالعزيز – في تاريخ البلاغة العربية – دار النهضة العربية ، بيروت – دط– دت

17) عتيق ، عبدالعزيز – علم البيان – دار النهضة ، بيروت – دط / 1985

18) عتيق ، عبدالعزيز – علم المعاني – دار النهضة ، بيروت – دط / 1985

19) فيود،بسيوني–علم البديع دراسة تاريخية لأصول البلاغة– مؤسسة المختار،القاهرة– ط:3–2011

20) فيود، بسيوني– علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية – مؤسسة المختار، القاهرة – ط : 4– 2015

21) القزويني ، الخطيب – الإيضاح في علوم البلاغة– دار الكتاب العربي، بيروت– ط : 1 / 2004

22) القزويني ، الخطيب – تلخيص المفتاح – المكتبة العصرية ، بيروت– ط : 1 / 2002

23) المبارك ، مازن – الموجز في تاريخ البلاغة – دار الفكر ، دمشق – ط : 6 / 2006

24) المراغي ، أحمد مصطفى – علوم البلاغة – المكتبة العصرية ، بيروت – ط : 1 / 2005

25) المطعني،عبد العظيم– المجاز في اللغة والقرآن الكريم– مكتبة وهبة ، القاهرة – ط : 2 / 2007

26) ابن المعتز، أبو العباس عبدالله – البديع – دار الجيل، بيروت – ط :1 /1990

27) أبو موسى ، محمد محمد – خصائص التراكيب – مكتبة وهبة ، القاهرة – ط : 7 / 2006

28) الهاشمي ، أحمد – جواهر البلاغة – شركة القدس ، القاهرة – دط / 2009

فهرس المحاضرات

المحاضرة رقم: 01 /العوامل الداخلية والخارجية المساهمة في نشأة البلاغة العربية 02

المحاضرة رقم: 02 /العوامل الداخلية والخارجية المساهمة في نشأة البلاغة العربية (تابع).....08

المحاضرة رقم : 03 / عوامل تطور البلاغة العربية 14

المحاضرة رقم : 04 / علم المعاني.....24

المحاضرة رقم :05 / الخبر والإنشاء 27

المحاضرة رقم :06 / الخبر والإنشاء (تابع).....33

المحاضرة رقم: 07 / الاسناد(المسند والمسند إليه) 41

المحاضرة رقم : 08 / الحذف والذكر 44

المحاضرة رقم : 09 / الحذف والذكر (تابع) 52

المحاضرة رقم : 10 /التقديم والتأخير 55

المحاضرة رقم: 11 / القصر 60

المحاضرة رقم : 12 / الفصل والوصل 63

المحاضرة رقم : 13/ الإيجاز والإطناب والمساواة 67

المحاضرة رقم : 14 / علم البيان : التشبيه 73

المحاضرة رقم : 15 / الحقيقة والمجاز.....80

المحاضرة رقم : 16 / الاستعارة..... 83

المحاضرة رقم : 17 / الكنـاية والتعريض 90

المحاضرة رقم :18 التحول في الأسلوب/ الالتفات.....95

المحاضرة رقم :19 التبادل بين الأفعـال.....103

المحاضرة رقم :21 أسلوب الحكيم.....106

ثبت المصادر والمراجع 109